المقالة الثالثة

من مقالات ومواعظ يوحنا فم الذهب

وهي من جملة أقواله لما كان مكدودا في المنفى في المشككين لعدم اقتدارهم على استطلاع كنه حقيقة الحوادث الجارية أو التي فوق العادة

مقدمة

قد علمنا أن الأطباء أذا اعتمدوا أن يداووا أناسا مصابين بالحمى أو سواها من الأمراض يطلبون أولا مشاهدة المريض لأنهم ولا يتيسر لهم أن يوصلوا إليه نفعا بأدويتهم أذا كان بعيداً وهذا الأمر تقتضيه صنعة الطب وأمراض الأجسام.

لكن نحن أذا أردنا مداواة واحد أو أكثر من المتشككين أو جميع المسكونة كما هو مرغوبنا وجل مبتغانا فلسنا نحتاج ما احتاجه أولئك. فلا نلتمس أن ندخل إلى منزل أحد السقماء ولا أن نعرف كيف حاله. ولا أن نشاهد بذاتنا ولا نستصحب معنا آلات المعالجة ولا نسبب نفقات ولا نكلف المريض إلى ابتياع أدويه.

ومع كل ذلك قد يكون أنهم لا يعرفوننا وربما كانوا مشتتين في آفاق المسكونة بين طوائف الأعاجم أو كانوا في الفقر والمسكنة حتى أنهم في عوز إلى القوت الضروري فما في كل ذلك مانع لنا أو تعويق عن مداواتنا لهم لكننا ونحن في محل واحد نطرد هذا المرض بلا آلات معالجة ولا أدوية ولا أطعمة ولا أشربة ولا أموال ولا أسفار طويلة على المرض وعلينا.

وان سألت وكيف يتم ذلك وبأيه حال ـأجبتك بإصلاحنا من كلامنا الدواء الصائر للمرض بكل الأمراض دواء أفضل من الأنواع المذكورة آنفا للمعالجة بأسرها لأن هذا الدواء يغذي أكثر من الخبز وينجح أوفر من الدواء.

ويكون أقوى من كي النار ولا يحدث وجعاً. فيحجز من الأفكار الخبيثة مجاريها المنتنة ويقطع الأعضاء المتعفنة أرهف من قطع الحديد بدون وجع.

وهو يفعل ذلك بدون إنفاق مال ولو يسير ولا يصده فقر مهما كان مدقعا فهذا الدواء إذا ركبناه أرسلناه إلى الناس أجمعين.

فينالون الشفاء أن أصنعوا فقط أليه تمام الإصغاء بإخلاص النية والمحافظة عليه.

الباب الأول

في أن يلزمنا ضرورة أن تذكر العلة التي منها تتولد الشكوك

إذا كانت معرفة المريض سبب مرضه في الأمراض الجسدانية من شأنها أن تفيده فائدة ليست بقليلة إن لم تقل تخلصه من مرضه بالكلية لأنه أذا عرف السبب فأنه بعد تخلصه من المرض الذي استحوذ عليه لا يعود يسقط فيه فيما بعد. فإذا عرف السبب الذي أوقعه في المرض احترز منه لئلا يسقط.

فهلم بنا نلزم الذين قد مرضوا هذه الأمراض وأمثالها أن يحترزوا لأنفسهم منها إذ نعرفهم من أين يكون فيهم مرض التشكيك المذموم لأنهم عرفوا هذا المرض وابتغوا أن يحترزوا منه أبلغ الاحتراز فيستخلصون من هذا المرض ومن سواه في الحاضر والمستقبل وذلك لأن من طبع هذا الدواء أن يشفى المرض الحاضر ويحمي من أمراض أخرى تعرض. لأن العوارض التي تشكك الضعيف ليست هي واحدة ولا اثنين ولا ثلاث. لكنها كثيرة في حياتنا الحاضرة فلحالة هذه يجب على الذين قد صيدوا أن يعرفوا ما نقوله ويحفظوا ليعتقوا من هذه كلها على ما ذكرت آنفا أن شاءوا. وإننا سنصلح هذا الدواء من الكب الإلهية ومن الحوادث التي عرضت لنا في عمرنا حتى يصير استعماله عاما حتى عند الذين لا يصغون إلى الكتب الإلهية إن أرادوا ولقد قلت مرارا أن هذا الشفاء لا يتهيأ بإلزام وغصب للذين لا يريدونه ولا يقتبلون الوحي الإلهي واكرر ذلك الآن هنا وأقول أن الأجدر بهم أن يقبلوا الوحي الإلهي أكثر من أقتبالهم البرهان من نفس الفعل لأنه يجب علينا أن نصدق أحكام الله عز وجل ونعتقد ها أهلا للتصديق أكثر من الأشياء المنظورة ولهذا السبب أصعب العقوبة مهيأ لهؤلاء إذا لم يصطلحوا لأنهم فازوا بالكتب وما استفادوا منها نوع منفعة هذا تأثيرها فلكيلا يصيبنا هذا المصاب هات لنمارس ما به الصالح لنا بعد أن نصف علة المرض.

الباب الثاني

في أن البحث عن حكمة الله الممتنع وصفها والتنقيب عليها مملوءا خطرا وهوسا

أن استخبرت عن علة هذا المرض الجسيم أجبتك هو العزم الباحث المنقب ورغبة الواحد منا أن يعرف جميع علل الحوادث كافة ومحاولته أن يبحث عن عناية الله وسياسته المحتجز إدراكها وأن ينقب عليها بإفراط وقاحته. على أنه من منا أحكم من بولس الرسول أفما كان الفاضل أناء مصطفى أو ما استمد من الروح القدس نعمة عزيزة لا توصف أو ما كان المسيح متكلما فيه أو ما خاطب إلهنا في ألفاظ يحتجز التكلم بها أو ما سمع وحده كلمات ما يمكن أن يقولها أحد من الناس أو ما خطف إلى الجنة أو ما اصعد إلى السماء الثالثة. أو طاف البر والبحر أو ما استماله العجم إلى القبول منه إذ تفلسف لهم. أو ما حوي أفعاله الروح القدس الكثيرة المتعددة أو ما أصلح جموعا كثيرة من الناس وثقف مدنا عديدة. أو ما جعل إلهنا المسكونة كلها في يديه وحملها به ولكن

مع ذلك اسمع هذا الرجل الغزير فضله والسامي قدره ومحله الحكيم الروحاني المقتدر هذا الاقتدار الكلى المتمتع بهذه المواهب الجليلة كيف أنذهل وكيف دهش وكيف ولى مسرعا لما حصل في البحث عن عناية الله. وليس عن عنايته كلها بل أندفع إلى جزء يسير منها فما تصفح كيفية عناية الله بالملائكة ورؤساء الملائكة والكاروبيم والسارأفيم والقوات الأخرى غير المنظورة ولا كيفية عنايته تعالى وسياسته للبرايا العادمة النطق والأشجار والنباتات والبذور والأهوية والرياح والفصول والأوقات والعيون والأنهار ولا كيف يعتني بالولادة بذات طبيعتها وبنمو براياه وطعامها ولا في سائر أفعاله التي من هذا القبيل بل تناول جزءا يسيرا من سياسته لليهود والوثنيين فاستغرق كلامه عند تعليمه كيف دعا الله الذين من الأمم وكيف اجتذب الذين من اليهود وكيف اكتسب الخلاص كلا الفريقين برحمته تعالى فأنه إذا رأى لجة واسعة عميقة قد انفتحت لديه وأراد أن يطلع من عمق قريب على عنايته هذه في هذه الجهة بات مما يغتاص وصفه من وصف سياسته تعالى حائرا كمن في ظلام دامس وأستعجب من حكمة الله وعنايته وامتناع وصفها وتعذر عبورها والغوص فيها فوهى جلده ودهش منها وطفر مسرعا وأبدى أصوات الهتاف بحيرة وذهول قائلا "يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه" (رو ١١ : ٣٣) ثم أوضح أنه عرف عمقها ولا يقدر على معرفة كميته بقوله "ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء" (رو ١١ : ٣٣).

فقال أنها لا تدرك، لا بل لا يستقصى عنها فضلا عن إدراكها. وأن البحث عن مبادئ هذه السياسات وأثار هذه الأحكام ليس في استطاعة أحدنا فضلا عن البلوغ إلى غايتها فبعد أن قال "ما أبعد طرقه عن الاستقصاء" قضى عليه الدهش والعجب أن يمجد الله لذلك فقال "لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرا أو من سبق فأعطاه فيكافأ" (رو ١١ : ٣٤ و ٣٥) ويستفاد من قوله أن الله عين الأشياء الصالحة وعلتها ليس يحتاج إلى شريك ولا مشير فلا حاجة به إلى اقتباس معرفة أو فهم من أحد ليجترح بها العجائب التي يجترحها كلها لكنه هو بدء كل المصالحات وعلتها وأصلها وينبوعها وهو خالق البرايا كلها ومبديها من العدم إلى الوجود وهو ضابطها بعد إبداعه إياها ويعتني بها طول مدى دوامها على نحو ما يشاء فقد قال بعد ما ذكر آنفا "لأن منه وبه وله كل الأشياء" (رو ١١ : ٢٦) فهو إذا علة الموجودات ومبدعها وأردف قوله بقوله "له المجد إلى الأبد آمين" (رو ١١ :٣٦).

ثم اذ ذكر موهبته الواصلة ألينا قال "شكرا لله على عطيته التي لا يعبر عنها" (٢ كو ٩ : ١٥) وعند ذكر سلامه قال أنه فوق كل عقل فضلا عن كونه لا يوصف ولا يخبر به "وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم" (في ٤ : ٧) فان كان عمق غناه وحكمته وعلمه لا يعرف وأحكامه لا تستقصى وطرقه لا تدرك وموهبته لا تنعت وسلامه يفوق كل عقل ليس عقلي وعقلك وعقل فلان وفلان ولا عقل بطرس وبولس بل عقول الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات العلوية كلها فأي اعتذار لك قل لي أي عضو تنال أذا استعملت جنونا وغتوا كهذا فتوخيت الوصول إلى الأشياء التي لا يستقصى أثرها وطالبت عناية الله كلها بحجج عما تفعله؟ فأن كان بولس الحائز معرفة جسيمة بهذا المقدار والحاوي دالة عظيمة والممتلئ مواهب غزيرة أفرج لهذا البحث وانحرف عنه. وأمر عجيب أنه لم يقدر أن يجده وأعجب من ذلك أنه ما استطاع أن يبحث عن مبادئه إذا كان

غير ممكن أيضا. أفما يكون من يسعى في طريق مضادة لطريق ذلك الفضل مصابا بالجنون الشديد وأحق الناس كلهم بأن يرثى له.

وهذا الرسول العظيم الإلهي قد كتب في رسالته إلى أهل كورنثوس في وصف المعرفة فبين أننا وان كنا تعلمنا علوما كثيرة فما حوينا من المعرفة مقدارا يسيرا حقيرا جدا غير ماتقدم ما نصه "فأن كان أحد يظن أنه يعرف شيئا فأنه لم يعرف شيئا بعد كما يجب أن يعرف" (١ كو ٨ :٢) ثم أوضح أنه ينقصنا ويعوزنا قسم عظيم من المعرفة وان أكثرها مخزون في الزمان المنتظر كونه وإنما خولنا الآن جزا يسيرا قال "لأننا نعلم العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض" (١ كو ١٣ : ٩ ، ١٠) وما وقف عند هذا الحد في قوله لكنه جعل هذا التحديد بينا بأمثلة أوردها لا يثاره أن بين الحد الأوسط فيما بين هذه المعرفة وفيما بين تلك المعرفة وان القسم الناقص عظيم "لما كنت طفلا كطفل كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجها لوجه" (١ كو ١٣ :١١ ، ١٢) أعرفت الحد الوسط فهو ما بين الطفل والرجل الكامل وبين من ينظر بمرآة وقي رمز غامض. وبين من ينظر الأشياء نظرا جليا. فما بالك تلج وتجن إذ تزداد جراءة باطلا على الأفعال الممنوعة. ما بالك لا تقبل من بولس القائل "من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله العلي الجلية تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا" (رو ٩ : ٢٠) أفرأيت بأيه طاعة يطالبنا وأي صمت يطلب منا لأنه ما قال هذا القول مبطلا سلطتنا المستولية على ذاتها لا كان ذلك. بل قال هذا القول موضحا أن العزم الطالب هذه المطالب يجب أن يكون والحالة هذه فاقدا صوته كالطين تابعا لما يقتاده الله إليه ولا يكون معاندا له ولا باحثا عليه عنه ولذلك لما ذكرنا بطبيعتنا ذكر طينا وفاخوريا على أن الفاخورى والطين جوهر هو هو بعينه. فإن يكن يوجد في الأشياء التي جوهرها هو هو بعينه طاعة على هذه الصفة فكم بالحري جب أن يكون في الأشياء التي لا يعرف الجزء الأوسط فيما بين جوهريها ومعرفتها وخواصها الأخرى كلها. فأى عفو ينال من يكون جافيا وقاحا بهذه الصفة حتى أنه يبحث عن أفعال الإله الذي أبدعه. فقد قال تفهم أيها الإنسان من أنت ولذلك قال ألست رمادا وغبارا وترابا أولست دخانا من أنت. ألست طنا أولست حشيشا فما أنت إلا زهرة نبات. لأن هذه الأمثلة كلها توردها الأنبياء في عرض كلامها بتواتر معتمدين أن يثبتوا لنا حقارة طبيعتنا. فإما الإله الذي أنت باحث عنه فليس بهالك ولا مستحيل لم يزل دائما على حال واحدة. لم يزل ثابتا غير ذي بداءة ولا نهاية ولا مفهوما متجاوزا عقلنا وقاهرا فكرنا لا يعبر عنه ولا يوصف ولا يوصل إليه بل يتعارض إدراكه من القوات العلوية الطاهرة غير المنظورة غير المتجسمة المتصرفة في السماوات فضلا عن أنبيائه ورسله وعني وعنك وعن مثلي ومثلك.

الباب الثالث

في أن الذات الإلهية يمتنع إدراكها على القوات العلوية
فضلا عن تعذر إدراكها علينا أيضاً

إذا رأيت السيرافيم المتطايرين دون ذلك العرش الشاهق المتعالي. ساترين بأجنحتهم وجوهم وأرجلهم وأظهرهم وهاتفين هتافا مرعبا ذهولا. فلا تظن أن لهم أجنحة أو أرجلا أو ريشا: لأن تلك القوات غير منظورة. لكن بهذه الصورة افتكر في خاصة الجالس على العرش التي يمتنع إدراكها والدنو منها. فانه لا يدرك ولا يدنى منه من تلك القوات غير المنظورة ولا يقاربهم مقاربة. فإنما هو لا يقترب فأنه ما ظهر حينئذ (أي حين الغرض الذي بدأ به بأول الجملة من وجوده على العرش والسارافيم متطائرين حوله) على ما هو (أي بجوهره الفائق) لأن الله لم يجلس ولا ينحصر في كرسي ولا يحوي في مكان. فما يستطيعون أن يبصروه جالسا متمكنا على كرسي وهم حوله. وهذه الأوصاف كلها أوصاف (يكنى بها عن أنه) مقارب لهم. لكنهم ما يحتملون البرق الطافر من هناك إليهم فيحجبون أبصارهم بحواجز أجنحتهم ممجدين له فقط ومسبحين بهتاف كثير رافعين إليه لحن تقديسهم ذلك السرى. أفما تذهب أنت فتدفن ذاتك في مكان غامض تغوص فيه إذا شئت أن تبحث بعتو كثير عن عناية الله الذي لا يوصف ولا ينعت وإدراكه يفوق القوات العلوية. فأن أوصافه كلها إنما هي واضحة بالتمام لأبنه ولروحه القدوس فقط وليست واضحة لأحد غيرهما وهذان الأمران أوضح لنا أحدهما يوحنا الصياد. وأوضح الأخر صانع الخيام وذلك أن يوحنا الصياد أبن الرعد المتمتع باسترضاء الرب جدا وكان محبوبا جداً عند المسيح حتى صار هذا الحب نعتا له وبرهانا عظيما على فضيلته وأوصله إلى أن اتكأ على صدر الرب فهذا قال ما يأتي "الله لم يره أحد قط" (يو ١ :١٨) فأراد بالرؤيا المعرفة أي ما عرفه عارف في وقت من الأوقات. "الابن الوحيد الذي هو في حضن الأب هو خبز" (يو ١ :١٨) وهذا المعنى ذاته بينه السيد المسيح وحققه بذاته أيضاً عندما خاطب محفل اليهود فقال (يو ٦ :٤٦) "ليس أن أحد رأى ألآب إلا الذي من الله هذا قد رأى ألآب" والابن لم يزل من الله فهو قد أبصر ألآب.

وألا ناء المصطفى أذ جاء إلى وصف تدبيره واراه أن يذكر الأقوال كلها التي يغتاص التكلم بها ويصف كيف عرفناها قال هذا القول "بل نتكلم بحكمة الله في سر الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا. التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد بل كما هو مكتوب ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان مل أعده الله للذين يحبونه" (١ كو ٢ : ٧و٨و٩). وأنا استخبره قائلا ـ يا بولس كيف عرفنا هذه. ومن عرفناها. وجعل هذه النعم غير المنظورة واضحة لنا. مع أنها لم تسمع بها أذن ولا خطرت على قلب إنسان. قل لنا ـ من حمل إلينا هذه المعرفة الفائقة وأين هو فيجيبني بأنه هو روح الله أعلن الله لنا ذلك به (١ كو ٢ : ١٠) وحتى لا يظن ظان أن الروح إنما يعرف فقط هذه الأسرار التي كشفها الله لنا به مع أنه حائز للمعرفة كلها أردف قوله ذلك بقوله "لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله لأن منّ من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله" (١ كو ٢ : ١٠ و ١١).

ومعنى ذلك أن الإنسان يعرف أمور ذاته ومكنونات ضميره التي يرتبها ويجعلها في سريرته وخلده ويعرفها كلها بكمال التدقيق. وكذلك الروح القدس له معرفة الله كلها التي لا يستطاع التكلم عنها بالتدقيق. وبقوله أمور الله لا يعرفها أحد الا روح الله أخرج الخليقة العلوية كلها فضلا عن الناس ولزمنا قول الحكيم. "لا تطلب ما يعييك نيله ولا تبحث عما يتجاوز قدرتك لكن ما أمرك به الله فيه تأمل... فأنك قد اطلعت على أشياء كثيرة تفوق إدراك الإنسان" (يش ٣ : ٢٢ و ٢٥) ومعنى قوله أن العلوم التي تعلمتها لا تستطيع تعلمها من ذاتك كما أنك لا تستطيع أن تكيف طبيعتك (سليقتك) لمعرفة الأشياء كلها لكنك تسلمت من العلو معرفة أكثر الأشياء لأنها كانت أعظم من قدرتك كثيرا فلذلك يجب أن تدع ما في فهمك مهملا. ما بالك تحاول في ذاتك أن تبحث عما هو صعب المنال عليك لأن كثيرا مما قد أدركته يفوق بصيرتك وقد حصلت عليها من جهة أخرى وهذا المعنى يوضحه بولس الرسول بقوله. "أي شيء لك لم تأخذه. وأن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ" (١ كو ٤ : ٧) فكف إذا عن هذه المحاكمة وأذعن لتلك المشورة المملؤة حكمة زائدة على غيرها القائلة "لا تقولن ما هذا أو لم هذا، فأن البرايا كلها خلقت لحاجتها.

الباب الرابع

في أن موسى في بادئ سفره بلفظة واحدة أبطل البحث المولد الخطر

ولهذا السبب لما كونت الخليقة وتسلمت رتبتها وقام في الوسط هذا العمل المنتظم في كافة ائتلافه البديع تقدم الله ليزيل اعتراض المتعنتين والجهلة بلفظة واحدة سد بها المشترع كل لسان متطاول بقوله عن الله أنه نظر الخليقة فإذا بها حسنة أمامه وذلك لأن كثيرين سيجدون في مخلوقات الله ما يذمونه. فأن كان النور حسنا فهناك الظلمة. والأشجار فيها ثمر وشوك. والأرض فيها الخصب والجدب والحدائق والجبال بها الأسماك والحيتان وفيها رياح هادئة وزوابع وحيوانات أنيسة ووحوش مفترسة وهكذا فالله ليسكت لسان المعترض قال "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً" (تك ١ : ٣١).

وإذا كان الصانع يعرف أن ما يصنعه يكون حسنا قبل صنعه أفلا تستطيع حكمة الله المخرجة البرايا كافة من العدم أن تعرف الأشياء قبل أن تكون أنها جيدة؟ لأنه لو كان جهلها لما كان أبدعها.

ولعلك تقول فلم قيل هذا القول فأقوله لك لأجل العلة التي ذكرتها فإذ قد سمعت القول أن الله أبصرها ومدحها فلا تطلبن فيما بعد برهانا على حسنها وتقولن كيف هي جيدة لأن تحقيق الخالق بأنها حسنة أعظم برهان على حسنها لأن من يريد أن يبتاع أدوية وهو لا يعرفها يريها أولاً للطبيب فإذا علم علما يقينا أن ذلك الطبيب قد أبصرها ومدحها فليس يطلب برهانا غير ذلك لفضيلتها وجودتها ولذلك موس النبي عند إيثاره أن يبطل كل بحث فيما بعد للمعطلين في أمر الخليقة سبق وأخبرنا أن الخالق أبصر البرايا ومدحها وحكم أنها جيدة حسنة وما قال أنها جيدة فقط لكنه قال أنها جيدة جداً قلا تبحثن أذا ولا تفتشن بأفكارك في البرايا المكونة بعدما مدحها الله. وإن لم تكتف بهذا بل تشاء أن تتعمق في فهم الأشياء دون قوله الله فستزج ذاتك إلى جدول من الأفكار وإلى لجج عظيمة مخترعة شتى لنفسك وما تعرف تصنع شيئا أكثر وتدفع بنفسك إلى خطر عظيم ولا تقدر أن تجد حدا لهذا

البحث لأن فكر الناس ضعيف جداً ينقاد إلى الأضداد والناس مضطربون في أحكامهم في وصف الخليقة لأن اليونان عظموها أكثر من الواجب لها وتجاوزوا الاعتدال فألهوها والمنانية وغيرهم من ذوي البدع في الدين قال فريق منهم أنها ليس عمل الإله الصالح وفريق منهم قطعوا أجزاء منها فريدة وصرفوها إلى هيولى قد عدمت أن تكون مكونة وحكموا أنها ليست مؤهلة لإبداع الله.

فعلى هذه الجهة كما ذكرت أن استعمل أحد الناس أفكاره المجردة عن إرشاد كلمات الله يضل كثيراً ولا يجد حسنا في القبح ولا قبيحاً في الحسن لأن ما الذي تظنه عندك أبهى من الشمس؟ إلا أن الكوكب البهي الخلق يفسد الالحاظ المريضة ويحرق الأرض أذا بعث شعاعه عليها أشد حرارة ويولد أمراضا ويجفف في أكثر الأوقات أثمار ويزيل فائدتها ويجعلها أشجار عديمة أن تكون مثمرة وقد صيرت لنا جزاء من المسكونة خائبا من أن يكون مسكونا فقل لي ما رأيك أفتغيب الشمس من أجل ما ذكرناه؟ فينبغي لنا أن نترك أفكارنا تسكن هادية حينما نسمع الكلمة القائلة "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً" فيحسب حكمنا أن التنعم والضحك والحصول في اللذة أفضل فاسمع سليمان الذي مارس كل نوع من النعيم يقول "الذهاب إلى بيت النوح أفضل من الذهاب إلى بيت الوليمة" والليل عندما مكروه إلا أن فيه راحة لإتعابنا ومخلصا من الهموم وراحة ليست يسيرة من المخاوف والأخطار. فهل المرض عندك حظ ردي فمن أين كلل لعازر؟ فهل الفقر عندك مذموم فمن أين وفق أيوب؟ فهل الضغطات المتداركة المتصلة رديئة عندك فمن أين شاع ذكر الرسل أيما هي الطريق الواردة إلى الحياة أليست هي الطريق الضيقة الضاغطة فلا تقولن لماذا صار هذا ولأي غرض هذا لكن في تدبيرات الله وفي إبداعاته أودع أنت خالقك وألهك الصمت الذي يودعه الطين للفا خوري.

الباب الخامس

في أنه ينبغي لنا أن نوقن أن الله تعالى يعتني بكافة برایاه وأن الخليقة تحدث المعاندين بجميل عنايته

ولعلك تقول فما رأيك أفما تريد أن أعلم علماً يقيناً وأصدق أن الله يعتني ببراياه كلها فأقول لك أريد ذلك جداً وابتهل لك به واشتهيه كثيراً ومعرفته لا تحتاج بحثاً عن عنايته وسيأسته. فأن كنت تريد هذه المعرفة فلا تطلب بحثا وان كنت ترتاب وتشك في عنايته فسّل الأرض والبحر والسماء والقمر اسال أجناس الحي الفاقد النطق المتلونة البذور النباتات الأسماك الفاقدة الصوت الصخور الجبال التلال الروابي الليل النهار لأن عناية الله وسياسته أبين من الشمس بعينها ومن شعاعها وفي كل زمان وفي كل مكان وفي البرية وفي المسكونة وفي العديمة أن تكون مسكونة وفي الأرض وفي البحر وأينما ذهبت تبصر آثار هذه العناية واضحة كافة عتيقة وجديدة بالإيقان بإحسانه ولذلك أوضح النبي حقيقة هذه الأصوات وقال ليس هي كلمات ولا أقاويل التي ليست تسمع نغماتها وبيان ذلك أن صوتنا أنما يصير معروفاً عند الذين لغتهم لغتنا فقط ولا يعرف عند الذين لغتهم غير لغتنا فأما صوت الخليقة فيوجد مسموعا عند كافة الأمم الذين من المسكونة.

الباب السادس

في وصف حب الله المتجاوز بإفراطه كل الحب

ولعمري أن الحسنى النية لا يكفيهم من الوقوف على أحوال الخليقة أن يعرفوا عناية الله فقط بها بل يتبين لهم من ذلك حبه الشديد لنا لأنه ليس يعتني بنا على بسيط ذات عناية لكنه يحبنا وحبه لنا شديد جداً يفوق الوصف ويخلو من الضعف والنقص بل دائما يشتد حرارة ويزداد قوة وليس ممكنا أن يخمد في وقت من الأوقات. ولكن يبين لنا جليل قدره أتخذ لنا أمثلة من الناس ليس ليبين أن حبه لنا كحبنا بعضنا لبعض بل لأننا لا ندرك حبه كما هو ونستطيع أن نفهمه بعض الفهم إذا مثله لنا بأمثلة معروفة عندنا لذا قال على لسان النبي "وقالت صهيون لقد تركني الرب وسيدي نسيني" فورد لهم الجواب حينئذ بقول "هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم أبن بطنها" فهذا القول معناه كما أن تلك المرأة لا تنسى بنيها كذلك ليس ينسى الله جنس الناس ثم حتى تعلم أنه أورد هذا المثال ليس مريدا أن يبين بهذا المقدار أن حب الله نظير حب الأم لأولادها لكنه على سبيل المثال فقط يشبه حب الأم بحب الله إذ هذا يفوق ذاك بما لا يقاس لذلك قال "حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك" (اش ٤٩ :١٤ و١٥).

أعرفت كيف تجاوز حبه مقدار حب الأم؟ وكذلك يتجاوز شوقه شوق الأب إلى أبنائه فقد قال النبي "كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه" (مز ١٠٣ :١٣) ويورد هو أيضا صورة الحب هذه إذ قد امتلكها خاصة به إلا أن سيد البرايا كلها إذ أوضح أن اهتمام الله يتجاوز هذه الصورة من كثرة وجودها فيه وبمقدار ما بين الضوء بأضافتة إلى الظلام وبقدر ما بين الخبث باضافتة إلى الصلاح بقدر ذلك الفرق بين صلاح الله وعنايته بإضافتة إلى إخلاص حب الوالد اسمع ما قاله "فمن منكم وهو آب يسأله أبنه خبزاً أفيعطيه حجراً أو سمكة أفيعطيه حية بدل السمكة أو إذا سأله بيضة أفيعطيه عقرباً. "فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه" (لو ١١ :١٣) فبمقدار الفرق بين الخبث وبين الصلاح بقدر ذلك صلاح الله الذي هو أعلى سموا من إشفاق الآباء واهتمامهم. فهذه الأمثلة ذكرتها لنقف على عظم وده وله المجد يريد أن يعلن لنا جزيل حبه لذا يقدم الأمثلة الكثيرة على ذلك. وكل مثل منها يدل على معنى أسمى من غيره قال بلسان داود "لأنه مثل ارتفاع السموات فوق الأرض قويت رحمته على خائفيه. كبعد المشرق عن المغرب أبعد عنا معاصينا" (مز ١٠٣ :١١ و ١٢) ويقول أشعيا النبي "لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرب. لأنه كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم" (اش ٥٥ :٨ و٩) فهذه الأقوال قالها بمعنى أعلى في وصف اغتفار خطايانا وقوله أننى أغضى عن زيغانكم عن شريعتي أكثر اغضاء وأجزله ثم بين أن اغتفاره عظيم فمثله كما رأيت. ولم يكتف بهذه التمثيلات وحدها ولكنه يحدد كلامه إلى تمثيل آخر أعمق غرضا لأنه قال بلسان هوشع النبي "ماذا أصنع بك يا أفرايم ماذا أصنع بك يايهوذا. فان احسانكم كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكراً" (هو ٦ :٤) والذي يقوله هذا يبين به أنه محب ودود لا يكف عن الاحسان لمحبيه. ولم يقف عند هذه الأمثلة لكنه أيضا نقدم إلى أبعد غاية منها وأورد مثالا آخر أعظم من ذلك وقال "على نحو ما يفرح الختن بعروسه كذلك يفرح الرب بك كل حين" وهذا عكس غيره من المحبين الذين يكونون في الابتداء أوفر حرارة وأكثر شوقا

ولكنهم فيما بعد ينطفئ لهيب حبهم. ولست اكف عن أن أمثل بهذه الأمثلة الإنسانية المفهومة لنا حتى تعرف من هذه الأمثلة غزير حبه الحار الخالص الشديد المتقد ناره لأنه إذ مثل حبه بحب الآباء أوضح أنه يحبنا أكثر مما أبونا ولما مثله بحب الأم أوضح أنه يودنا أكثر مما تودنا أمنا ولما مثله بعريس وعروس بيّن أنه يفرح بنا أكثر من العريس بعروسه لأن حبه يسمو بهذا المقدار مقدار ابتعاد السماء من الأرض وأكثر من هذا المقدار.

وما اكتفى بذلك لكنه تقدم عند ابعد غاية منها إلى مثال أدل كثيراً لأن يونان النبي عند تحيره بعد هروبه وبعد مصالحة الله لأهل نينوى وانذهاله من أقواله التي هول عليهم بها والتي ما خرجت إلى الفعل وعرض له عارض أنساني واكتأب مقطبا أوعز الله إلى شعاع الشمس أن تبعث لهيبها أوفر حرارة ثم أمر الأرض أن تخترع له سقفا من البقل وجلله وأراحه بزيارة في اللطف به ثم غمه أيضاً بتغيبه هذا السقف عنه ولما أبصره في تلك الحال وقد تدأرك عليه بضجره أسمع ما خاطبه به "أنت شفقت على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة إلى يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوه من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة" (يون ٤ : ١٠ و ١١) فالذي يقوله هذا هو معناه أما أراحك على خذا المثال ظل اليقطينة كما سرني أنا تخليص أهل نينوى وأما غمك أنت على هذه الصورة انتزاعها وهلاكها كما غمنى أنا هلاكهم الذي كاد أن يكون صادرا عن عزمي أرأيت كيف يتجاوز في هذه الأقوال تمثيله فأنه ما قال أنت تشفق على نبات لليقطينة وصمت لكنه استثنى بقوله الذي لم تتعب فيها ولا ربيتها لأن الفلاحين من عاداتهم أن يحبوا خصوصا من غروسهم تلك التي قد تعبوا فيها تعبا جزيلا فزاد حذا اللفظ الايثار أن يبين أنه يحب الناس على هذه الصورة لأنه قال إن كنت أنت متشبث هذا التشبث بالعمل الغريب منك فإذا أحق وأولى بأن أتشبث بعملي أكثر الذي أنا مبدعة ثم بين سبب خطأ أهل نينوى بقوله "الذين لا يعرفون يمنيهم من شمالهم، أي أنهم اجترموا جرائمهم بغباوتهم أكثر مما اجترموا بخبثهم وهذا المعنى فقد أوضحه تمام توبتهم. وانتهز أناسا آخرين نائحين كأنهم مهملون فقال هذه الألفاظ لم تسألونني في أبنائي وتوصونني الإشفاق على أعمال يدي فالذي يقوله هذا معناه: من يذكر أباً ويتوسل اليه في أن يعتني بابنه ومن يذكر صانعا مخترعا حتى لا يهمل عمله أن يسقط ولقد عرفتم كيف يهتم الأب بابنه والصانع بصانعه فكيف اتظنوني محتاجا إلى من يتوسل إلى حتى أعضد أبنائي وأعمالي؟ فهذه الأقوال قالها ليس حتى لا يسألونه لكنه قالها ليعرفوا أن الله يعمل ما يناسبه قبل سؤالهم إياه ويريدهم أن يسألوه لأن الفائدة للذين يسألونه عظيمة في هذه الجهة.

أرأيت كيف يلمع البرهان على عنايته الممتنع وصفها لنا بهذه المثالات أبين وضوحاً وأبهى من الشمس حسنا وتأمل الغرض الذي كان قد أورد في كلامه الأب والأم والختن والعروس وبعد السماء والأرض والفضاء الذي لبن المشارق والمغارب وناصب الغروس التعب من أجل البقل النبات والمولد والعاشق الشديد اهتمامه المرتجف خوفا على معشوقه حتى ولو بألفاظه وقال أن صلاح الله بهذا المقدار يفوق على هذه المثالات كلها بمقدار ما يفوق الخير على الخبث ولربنا المجد.

الباب السابع

برهان بالخليقة على عناية الله تعالى وسياسته

فهذه على ما ذكرت كافية للخالص ودهم وحفاظهم ولكن إذا كان لله يوجد أناس جسد يون يصعب إصغاؤهم ويعسر عليهم قبول كلامنا لضعف فهمهم فهات نبرهن لهم عنايته بأفعاله بأعيانها على حسب أمكاننا لأن ما يتيسر لنا أن نبرهنها كلها وأليق ما يقال أننا ما يمكننا أن نبين الجزء اليسير منها بهذه الصورة وهي قد عدمت أن تكون محدودة أو موصوفة لأنها لامعة بأفعالها اليسيرة والجسيمة وبتأثيراتها الملحوظة وغير الملحوظة لأن هذه الخليقة العجيبة المنتظمة في كافة ائتلافها وإبداعها ليس لغرض آخر إلا لأجلك وجعلها حسنة بهذه الصورة عظيمة متلونة موقرة نافعة كافية مريحة من كلفة جهاتها معطية جسما طعامه وحاجته ومقدمة لنفوسنا العلم الذي يرشدنا إلى الطريق المستقيم لمعرفته تعالى.

لأن هذا الوجود لم يخلق للملائكة لأن الملائكة أقدم منه في الخلقة بل أن الملائكة أنفسهم ترنموا بمدحها عندما خلقت كما قال أيوب "عندما ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بني الله" (أي ٣٨ :٧).

أي حين كونت النجوم سبحتنى كافة ملائكتى. ومجدوني بصوت عظيم متحيرين من كثرتها من حسنها من وضعها من بهجتها من إشراقها من نظامها من خواصها الآخر كلها التي عاينوها أكثر مما نعاينها. ولم يكتف بجمال السموات والنجوم لكنه جملها مع ذلك بالشمس والقمر وزينها واهبا لك في كل وقت اللذة بها كثيرا مخولا إياك الحاجة الجزيلة لأن ماذا يكون أبهى من السماء حسنا الذي يلمعها الشعاع أحيانا وتضئ الأرض بكثرة نجومها المسلوبة تحديدها كشهب بارزة من عيون. أحيانا مرشدة الملاحين والمسافرين لأن القاطع لجة البحر الجالس على سفينته الباذل ذاته لمواقع الأمواج ولشدة الرياح ومعاركة الوحوش ولظلام الليل الفاقدة بدره يثق بالهداية من النجوم والنجم الموضوع في علو جزيل تقديره يقتاد من بعد جزيل الجالس في سفينته اقتياد على هذا المثال باستقصاء ذاته قريب منه حاضر لقربه ويوصله إلى الموانئ. لعمري أنه يبدى صوتا إلا أنه ينظره يرده الطريق ويقطع له المسير البحري بحياطة ويريه الأوقات ويرتب له الزمن. وهذا ليس نافعا للنوتية فقط لكنه نافع للمسافرين في البر أيضاً حتى ل يمارسوا السفر في وقت مجهول من الليل ولا يجلسوا في منازلهم في الوقت الموافق لمسيرتهم وهذا الفعل فقد اؤتمن عليه مع النجوم أيضاً مساعي القمر بأبلغ الاستقصاء فكما تحدد الشمس ساعات النهار فكذلك يحدد القمر ساعات الليل ويمنحنا حاجات كثيرة أخرى وينمينا بطبيعة الهواء وينمى البذور ويفيدها من ذاته المنفعة التأمة لتكوينها ويقف ما بين صف النجوم واشراق الشمس فتحصل لذة من هذا اللون للناظرين ليست يسيرة.

فحكمة الله لم تكف أن تجعل من الكواكب والنجوم مرشدا وهادئا ومنظما للأوقات والأزمنة ولكنها جملتها بأبهى الألوان وأجمل المناظر ليصير مع الانتفاع منها التلذذ بها لأنه ما الذي يكون أكثر بهجة لنا من السماء المبسوطة حينا فوق رؤوسنا بصورة جلال نقي صاف المتلونة حينا بهيئة بستان وقد سرنا منظرها نهارا مجملة بالشمس يسرنا منظرها ليلا بتالق النجوم في كبدها. فالسماء جميلة من سائر جهاتها وفي كافة أوقاتها. وتلون حسنها يكون صافيا دائما. ما الذي يكون ألذ منظرا منها إذا وافي الليل ولم يكن بعد قد ألمعها شعاع الشمس

ألأشقر كمنسوج الوشاح الزعفراني. ما الذي يكون أبهى منظراً من الشمس التي تطلع من جهة المشرق وفي لحظة صغيرة تضئ أشعتها كل أرض وكل بحر وكل جبل ورابية والى السماء كلها وتخلع عن البرايا المنظورة حجاب الليل وترينا الأشياء كلها عارية لدى أبصارنا أنظر كيف تدهشنا بسرعة سعيها وحسن ترتيبها وخدمتها التي لا تتغير طول ألسنين وجمالها الذي لا يذبل. ولمعانها الذي لا ينطفئ. وانظر كيف تلاقي أشياء كثيرة ولا يصل إليها أذى حيث تتصل بالبذور والغرس وأجسام الناس وفي ذوات الأربع وفي البهائم في الأسماك في الأهوية في الحجارة في النباتات في الأرض في البحر في الهواء في البرايا المنظورة كلها على الإطلاق لأن البرايا كلها تحتاج وتستمتع بحاجتها منها وتصير أفضل مما كانت إذا ساهمت حاجتها منها. وليس الأجسام فقط ولا الغروس لكن المياه أيضاً والبحيرات بعينها تنطلق بها وتنتقى وتصير أصغى مما كانت ولهذا المعنى لما أراد المترنم أن يوضح حسنها البهي باتصال دوامها وجمالها الدائم وزهوتها التي ما تسقط في وقت من الأوقات وحسن بهائها وجمال صورتها وخدمتها الناجية من تعويق يقطعها قال هذا القول "جعل للشمس مسكناً فيها. وهي مثل العروس الخارج من حجلته" ثم أوضح سهولة خدمتها وقال "يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق" وبين خاصتها الكافية التي تحوى كافة المسكونة "من أقصى السموات خروجها ومدارها إلى أقاصيها ولا شيء يختفي من حرها". (مز ١٩ :٤ -٦).

أفتشاء أن أصف لك من أي جهة أخرى يجب أن تعرف الأحوال من البحر من الأرض من الأصناف المتلونة التي في البحر القاهر من ذوات الأربع الأرجل التي في الأرض من الدبابات من الطيور الساكنة في الهواء من البرية من التي تعيش في المسكونة وغير المسكونة والبذور النابتة من الشجر من الحشائش التي في البراري والتي ليست في البراري من النباتات الثابتة في البقاع في الأدوية في الجبال في التلال في الحشائش النابتة من ذاتها من الناشئة بتعب وفلاحة من صنوف الحيوانات الأنيسة الوحشية الداخلة تحت يدي الناس الصغار منها والكبار من التي تظهر في الشتاء من التي في الصيف تخرج من التي تظهر في الخريف من الطيور وذوات الأربع الأرجل والأسماك والغروس والحشائش المتكونة في الليل من التي تتكون في النهار من الأمطار في الأوقات من الانقلاب من الساعات من مقدار السنين من الموت من الحياة من الوجع الكائن معنا من الكابة من الطعام من الشراب الذي أعطيناه من ملابسنا من أبنيتنا من الخشب من الحجارة من المواد المعدنية من البحر الممكن المسير فيه من البحر المانع المسير فيه من الجزائر من الموانئ من السواحل من سطح اللجة من قاع البحر من طبيعة الاستقصاءات التي منها تكون العالم لنا من ترتيب الأوقات من فعل مقدار الليل والنهار من المرض من الصحة من أعضائنا من تكوين نفسنا من صنائعنا من الحكمة الموهبة فيها لجنس الناس من حاجة البهائم التي تخدمنا والغروس وغيرها من المكونات من صنوف الحي أصغرها وأحقرها. ماذا يكون أصغر وأحقر من النحلة ماذا يكون أحقر من النمل ولكن هذة الكائنات الذميمة تبدى مع ذلك صوتا بهيا في وصف عناية الله وقوته وقدرته وحكمته ولهذا المعنى لما تخيل النبي المؤهل لروح هذا مقداره جسيم الخليقة وشرح أصنافا منها حقيرة جدا صرخ بدهشة كبيرة بذلك الصوت العجيب "ما أعظم أعمالك يأرب. كلها بحكمة صنعت" (مز ١٠٤ : ٢٤) وهذه البرايا كلها لأجلك. لأن الرياح لأجلك خلقت (لأنني أعود إلى كلامي الأول أيضا) لتروح على أجسامنا أذا توجعت لتنظف الوسخ والفساد الكائن من الحماة وتزيل الغبار والثقل الكائن من الدخان ومن

أمثال هذه وغيرها لتغذى البذور لتنمى الغروس لتسافر معك في البحر وتصير خاصته في الأرض لفلاحتك فهنالك في البحر تسير السفن تسييرا أسرع من السهم وتسلو الشقاء الكائن من العمل وها هنا تنظف بيادرك معك وتميز التبن من التبر لتجعل لك الهواء خفيفا ناعما لتسرك من جهة أخرى بسمعك وألحاظك فتصفر صفيراً حلوا ساكنا وتصدم حينا الغروس وتهز أوراق الشجر وتفيدك من هذه الجهة لذة كثيرة لتجعل نومك في حين القيظ لذيذا أشد حلاوة من العسل حتى تكون ما تعمله في الشجر إياه تعمل في مياه الأنهار حيث تموج سطحها وتمنحك من هذا الفعل لذة نظرك لتتسلى عن الحرارة الكائنة من أشعة الشمس كما أن الهواء نافع للمياه من جهة أخرى فما يترك المياه تتعفن إذا وقفت وقوفا دائما لكنها باتصال تحريكها إياها وترويحها تجعلها متجددة وإنها ملائمة لتغذية أصناف إلي السابحة فيها.

وأن شئت تتصفح الليل بعينه وتبحث عنه تبصر في هذه الجهة عناية الخالق كثيرة لأنه يريح جسمك عند تعبه وتوجعه ويطلق أعضاءك بعد تمددها في الأتعاب طول النهار ويخلصك من الغموم العارضة لك طول نهارك ويريحك من الهموم التي قد فاتها وقتها وقد اخمد في أكثر الأوقات حمى المريض إذ أورد له النوم بدلا من الأدوية وسير خبرة صناعة الأطباء فيه إلى ميناء راسخ صخره وخلصنا من أتعاب وأوجاع كثيرة فالحاجة إلى الليل يعطينا ما يعجز النهار عنه فيظللنا بظله وراحته وسكونه الذي به تستقر البرايا كلها وتترطب نفسنا بعد تعبها وجسمنا إذا شقى في الأتعاب يتجدد وهكذا يمكن بعد راحة الليل لأن نمارس النهار متجددين فلو كانت الحياة نهارا فقط ما كان أتعبها ولكن الله جعل النهار لعملنا والليل لراحتنا. وأن بسطنا كلامنا إلى سعى الأسماك الذي قد فاتنا خبرته التي في البحيرات التي في العيون التي في الأنهار الوحشية والأنيسة التي في البحر الذي يتيسر المسير فيه التي في البحر الممتنع المسير فيه. وإلى أعظم أجناس الطيور المحتجز وصفها التي في الهواء التي في الأرض التي في المياه جميعها لأنه توجد فيها أصناف كثيرة منها الوحشية ومنها الأنيسة ومن التي تكون وحشية نفوره فتؤنس وتدخل تحت أيدي من يسوقها ويؤنسها من المأكولة من التي ليست مأكولة وإذا تبيناها واحداً واحدا وتأملنا من كل منها حسنة ورياشه ونغمته المغردةً المترنمة وأن تألمنا فقط فائدتها وطريقتها ومقاماتها وأخلاقها وحاجاتها وخدمها وشرحنا الخدم التي يخولنا إياها كلها وعظمها وصغرها وتناسلها وتصرفها والتلون الكثير المحتجز وصفه فيها وعلمنا هذا العمل يعينه في الأسماك وجئنا من هنا إلى الحشائش أليابسة النابتة في كل موضع من الأرض والتربة ووصفنا ثمرة كل منها وحاجته وطيب رائحته ونضرته ووصفه وورقه ولونه وشكله وعظمه وصغره ومنفعته وأصناف فعله وفصول قشرة وأصوله وأغصانه وتأملنا البساتين والغياض ثم انتقلنا إلى اقاوية الطيب المتلونة المختلفة أصنافها وتصفحنا أماكنها وأحوال وجودها والاهتمام بها واستغلالها وتأملنا بعد ذبك أيضاً تلك الأحجار المعدنية المتحجز وصفها وما ينفعنا منها وتصفحنا هذه وغيرها أكثر منها في كل ما في الخليقة فأى كلام أو أى زمان يكفينا لتأملها البليغ الاستقصاء عنها وهذه كلها لأجلك والموت لأجلك والحيوة لأجلك والنماء وأعمال الطبيعة الجزيل تقديرها والصنائع والأعمال والمدن والضياع والنوم والتربة لأجك والعالم الذي هذا حاله الآن لأجلك وسيكون أفضل من هذه لأجلك والدليل على أنه سيكون أفضل من هذا وكونه لأجلك اسمع ما قاله بولس في إيضاح ذلك قال "لأن الخليقة نفسها ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله" (رو ٨ : ٢١) ومعنى ذلك أنها ستعتق من أن توجد بالية فاسدة ولولا خيفتى أن أجعل

كلامي طويلاً أكثر من المقدار المعتدل لتفلسفت بأقوال كثيرة في وصف الموت وكنت أبين في هذا الوجه خصوصا حكمة إلهنا وعنايته ولقلت أقوالا كثيرة في البلى في الدود في تربتنا. هذه الأصناف التي بحث عنها الكثيرون ولأن أجسامنا تتحلل إلى تراب وإلى غبار وإلى دود وأبين في هذه الوجه عنايته المحتجز وصفها واهتمامه لأن من عنايته بعينها من صلاحه بعينه الذي به أبدعنا ولم نكن موجودين من هذا الصلاح بعينه أوعز بموتنا وأمر أن نصير إلى غاية هذه حالها لأن أفعاله الكائنة وان كانت مختلفة لكنها موجودة من صلاحه الواحد لأن المائت لا يضر من هذه الجهة ضررا والحي بعده يستفيد من قوته أعظم الفوائد لأنه إذا ما أبصر من كان ماشيا معه أمس وقبله منحلا متحللا إلى رماد وتراب ولو كلن متجبرا تجبر إبليس المحال بعينه فمن شأنه أن يتذلل وينقبض ويخاف ويتعلم أن يتفلسف ويتحمل ويتخلص من التجبر الأعظم ضررا من الرذائل كلها وينكر نفسه المتعالية ويعلمها أو يذللها ويسكن في سريرته تواضع اللب أبو كافة الأفعال الصالحة والماضي من الدنيا فلم يبصر ضررا لأن هذا الجسد سيقوم عديم الفساد فالموت معلم لنا إذ يؤدب تمييز فهمنا ويلجم اسقام نفسنا ويقبض أمواج فكرنا ويحصل السكون في سريرتها.

فإذ قد عرفت من الأقوال التي قد قلناها ومن غيرها أكثر عناية الله عز وجل التي هي أبين ظهورا من هذا الضوء فلا تبحث أبحاثا مختلفة فيما يسمو على فكرك ولا نحاول معرفة علل كل الأشياء لأن وجودنا بعينه أنما هو من صلاحه وهبه لنا وليست به حاجة إلى خدمتنا وقد يجب علينا أن نعبده ونسجد له ليس لأنه أبدعنا فقط ولم نكن موجودين ولا لأنه وهب لنا نفسا ناطقة خائبة من جسم ولا لأنه فوض ألينا التملك على برایاه الملحوظة وقلدنا رياستها ولا لأنه خلقنا أفضل من باقي الموجودات لكن لأته لبس محتاجا إلى شيء منا لأن هذا هو العجيب في صلاحه أنه ليس يحتاج إلى أحد منا لأن قبل تكوينه إيانا والملائكة والقوات العلوية كان حاويا مجده وغبطته وأبدعنا لأجل تعطفه فقط وخلق كل ما خلق لأجلنا.

الباب الثامن

"في أن البرهان على عنايته الكثيرة أعطائه إيانا الشريعة الطبيعية والمكتوبة وانه جعل الشجعان أن يصيروا معلمين للأمم التي قبلهم حين انطردوا إليهم ووهب لنا بعد ذلك ورود وحيده وهو رأس الصالحات لأنه لأجلنا كتب شريعة أعطانا إياها وأرسل أنبياء واجترع عجائبه إلى التمام".

وحينما خلق الله الإنسان وضع فيه الشريعة الغريزية معلما ونصبها لأفكارنا بمنزلة المدبر في السفينة وكالرابض للنفوس من هذا وعلى هذه الجهة عرف هابيل هذه الشريعة ولم تكن الكتب بعد موجودة ولا الأنبياء ولا الرسل ولا شريعة هاتفه بفرائضها لكنه حوى الشريعة الغريزية وقد عرفها قائين على هذه الجهة لأنهما كلاهما عرفاها وعرفا سيادة الله عليها ولكنها لم يسلكا طريقا واحدة بعينها لكن أحدهما هابيل سلك طريق الفضيلة. وما أهمل الله قايين حين سقط لكنه بعد سقوطه وعظه أولا وأدبه أخيراً وعلمه. فلما لم يعمل الأكثرون من الناس بموهبة هذا مقدار منفعتها وهي منفعتهم كم تعليمهم الطبيعي ما أبادهم على هذه الحال ولا دفعهم إلى هلاك لكنه لبث يؤدبهم بكتبه بإحسانه ويعظهم بعقوباته بهذه الخليقة ألفاعلة كل يوم فعلها المتممة خدمتها المألوفة

بالحوادث الحادثة حدوثا معجزا بخلاف العوارض المألوفة برجال أتقياء في بدء الزمان لأنه نقل رجالا أفاضل مملوءين فلسفة من مواضع إلى أماكن غيرها لأنه نقل إبراهيم حينا إلى فلسطين وجعله حينا أن يذهب إلى مصر أيضاً وسير يعقوب إلى الشام وموسى إلى مصر أيضاً والثلاثة الفتية ودانيال إلى بابل وأرميا إلى مصر وأعطانا شريعته وأرسل أنبياءه وزجرنا وأهملنا وإلى الآسر دفعنا وللعتق أهلنا وما انفك من الابتداء إلى الانتهاء يفعل أفعاله كلها ويدبر كل شيء من أجل جنسنا لأنه ما اكتفى بتعليمنا من خليقته المؤدي إلى معرفة إلهيته فقط لكن أذا ما اشتمل الأكثرون من تلقاء حفاظهم من هذه الجهة نفعا فتح لخلاصهم طرقا أخرى وبعام احسأنه وتمامه قدم لنا هذه الأفعال الصالحة وأرسل أبنه الوحيد متجسداً من طبيعتنا بعينها التي له فصار مثلنا ومشى في أرضنا وتصرف مع الناس وأكل معهم وشرب وطاف أرضنا يؤدبنا يعلمنا يجترح عجائبه فينا وأدبنا بالأقوال التي قالها ووعظنا بها بالنوائب التي قاساها بالعوارض التي اصطبر عليها بالمواعيد التي وعدنا بها بالصلاة التي منحنا إياها بما أعطانا من عطايا وما وعدنا من المنح جاعلا برهانا مواعيده أهلا للتصديق وبعجائبه التي اجترعها لنا مؤيدا بها حقيقة كلامه. فمن يستطيع أن يصف أفضال ربنا علينا من لا يدهش من اهتمامه من لا يرتاع من عنايته المحتجز وصفها أذا تفطن كيف من أجل عبيد فانين بذل أبنه الوحيد إلى الموت اللعين إلى الموت الجالب العار موت المجرمين أعظم الجرائم وصلب على خشبة عالية وبصق عليه ولطم ودفن ووضعت سماته في قبره وهذه الحوادث كلها كانت لأجلك ولأجل إحسانه إليك حتى يحل اغتصاب (الخطيئة) والموت ليفتح لنا أبواب السماء لتغيب اللعنة لتحل القضية الأولى التي قضى بها علينا لنتعلم الصبر لتستفيد الثبات والاحتمال لكيلا يغمك عارض من عوارض عيشتنا الحاضرة لا بسبب ولا بموت ولا مذمات ولا سياط ولا اغتيالات أعداء ولا تعسفات ولا غارات ولا وشايات ولا ظنون خبيثة ولا صنف آخر من هذه ألأصناف وأمثالها لأن من أجل هذه كلها جاء وشاركك في هذه العوارض كلها وبكافة ماقاساه ضبط لك النوائب كلها بزيارة ألاستظهار عليها وأدبك وعلمك ألا ترتاح من صنف من هذه الأصناف وأمثالها وما اكتفى بهذه فقط ولكنه بعد طلوعه إلى سمواته وهب لنا نعمة الروح القدس السامي وصفه وأرسل رسله الخادمين بقوة الروح يقاسون الآلام الجزيل عددها مضروبين بالسياط مشتومين مفرقين مقطعين محترقين بالجوع والعطش عائشين في ميتات مداهمة لأجلك كل يوم وارتضى بذلك لأجلك ولأجل اهتمامه بك. وأعد ملكه لأجلك ونعمة الصالحة الممتع وصفها وتلك النهاية التي هي سمواته ومساكنه المختلفة المتلونة وتلك السعادة التي ليس يكمن في وقت من الأوقات ترجمتها.

فأذ قد وجدت لبيان جليل عنايته دلائل هذا مبلغها في العهد العتيق في العهد الجديد في هذه العيشة ألحاضرة في الحوادث الكائنة وفي التي تتكون في أفعاله المصنوعة كل يوم في أفعاله في ابتداء الزمان في وسطه في التي تكون في غايته في الكائنة بمداومة في الكائنة في حين بعد حين من الزمان. في التي لأجسامنا في التي لأجل أنفسنا ورأيت البراهين عليها شهودا متقاطرة من كل جهة معلنة عنايته وسياسته فهل تشك أيضاً؟ قد تقول انك ما تشك لكنك تقول وتصدق أنه يعتنى بكل شيء فقد ملأت ذاتك من الإيقان بذلك فلا تفتش إذا تفتيشا كثير إذ قد عرفت هذا المعنى معرفة واضحة أنك قد حويت سيدا أخلص ودا من الآباء أوفر اهتماما بك من أمك أشد عشقاً لك وأوقر من عشق الختن والعروس محتسبا خلاصك نباحه وراحة مسرورا بخلاصك أكثر من سرورك أنت به من الأخطار والميتات وهذا المعنى فقد أوضحه بيونان وثبت كافة صور حنوه كما بينا سابقا لأن عناية الله قد

عدمت أن تكون مترجمة أو مدركة وسياسته يمتنع الوصول إليها وصلاحه يعسر علينا وصفه وتعطفه قد عدم أن يقتفى أثره فإذا قد عرفت هذه الشواهد كلها وأيقنت بقضاياها التي حققها وبأفعاله التي فعلها ويفعلها فلا تبحث عن صنف من أصناف العوارض ولا تكثر تفتيشك ولا تقل لما صار هذا إلى وبماذا ينتهي هذا وكيف؟ فهذا الريب يؤدي إلى الحيرة والشك. أفلا تسلم إلى الله تسلمك للبشر فأننا إذ جاء طبيب يداوينا نسلم له إذا كوانا إذا سقانا أدوية مرة ولو كان غلاما وكل ما يصنعه لك تحتمله بأوفر صمت وتعرف له المنة على كيه إياك وعلى بتره لأحد أعضائك وهذا تحتمله رغبة في الصحة دون أن تؤكد الحصول عليها لأن كثيرين من الأطباء استعملوا صنوف مداواتهم فقتلوا المرضى وهذا ما نعمله مع النوتى والبناء وبغيرهم من الذين يمارسون صنائعهم لأننا يمارسون صنائعهم لأننا نحتسبه جهلا أن نطالب الصانع بعلل الأعمال التي يعملها كلها حين نكون جاهلين بصناعته ومع أننا نظهر هذا الخضوع لأصحاب المهن العالمية فإننا نحن نجسر وتبحث عن الحكمة الممتنع وصفها السامي نعتها العالي إدراكها ونلتمس لما صار كذا وكذا على أننا قد علمنا علما يقينا أن هذه الحكمة ناجية من الزلل وأن صلاح إلهنا جزيل وأن عنايته يمتنع علينا نعتها وأن الأفعال الواصلة ألينا كلها صالحة أذا وصلت إلى غايتها أن لم تقطعها فقط أفعالنا وأنه ما يشاء يهلك واحدا منا وأن يخلص كافتنا ويريد ذلك ويقتدر عليه وكيف لا تحتسب بحثنا عن أفعال الله جهلا بل جنونا لأننا ما نبحث عما يعمله معنا فقط لكننا نبحث عن أفعاله كلها منذ مبادئها وما نصبر إلى منتهى العوارض الكائنة هذه غباوة لا حد لها.

الباب التاسع

في أنه يجب أن نتبصر إلى غايات أعمال الله

فالحال الأفضل كثيراً أنه لا يجب أن نبحث عن أفعال الله وان رمنا بحثا فيها فلا نبحث عنها من مبادئها ولكن لنتبصر إلى غايتها فتأمل إلى أين تنتهي لا ترجف من مبادئها ولا تنزعج لأن الصانع إذا أبصره تاجر قد عدم الخبرة بصناعته يسبك الذهب في ابتداء عمله ويخلطه بالرماد وبالنخالة والتبن أن لم يصبر إلى نهاية عمله فيظن أن الذهب قد هلك وضاع وأيضاً أن كان أحد الناس قد ولد في البحر وتربى فيه ثم انتقل إلى فضاء الأرض بغتة وكان بجملة حاله لم يسمع اهتمام الناس بعمل الأرض وأبصر الحنطة مخزونة محفوظة موضوعة في موضع نظيف بعيد عن الماء ورأى الفلاح قد أخرجها على غفلة وبذرها وطرحها في الأرض وقد صارت في الحقل لدى جميع المجتازين ولم تخلص من الماء فقط بل غرقت به ودفنت في الطين إنما يظن أن الحنطة قد تلفت وضاعت ويلوم الفلاح الفاعل هذه الأفعال إلا أن لومه ليس هو منسوبا إلى طبيعة الفعل لكنه منسوب إلى زوال خبرة من لم يميز تميزاً صائبا وإلى غباوة الذي حكم للحين هذا الحكم منذ المبادئ لأنه لو صبر إلى الحصاد وأبصر الحقول مخصبة ومنجل الحاصد مرهفا ورأى الحنطة المبذورة المسلمة للطين ناهضة أيضاً صائرة أضعافا كثيرة أبهى خصباً وأكثر تجديداً فاقدة عفونتها منقومة في كثرة بهائها لابسة لباسا فاخراً منهضة إلى العلو ساقها تسر الناظر اليها وتغذيه وتفيده ربحا جزيلاً لكان يذهل انذهالاً عظيما حينئذ لأن الثمر انساق بتلك الأفعال إلى هذا الخصب والبهاء وأنت أيها الإنسان فالحال الأفضل لك كثيرا الآن أن لا تبحث عن أفعال

سيدنا كلنا ولا تكن بهذه الصورة جسورا على البحث وأردت أن تركب حذا المركب الخشن وتسلم نفسك لما يسوق إلى الجنون بل تبصر إلى غاية الحوادث الكائنة لأن الفلاح إن كان يبصر لا الشتاء كله ولا ينظر في حين البرد إلا إلى ما يظهر من الحنطة ولا يفكر إلا في تلك الأثمار التي يؤمل أن يتمتع بها فأولى بك أنت وأليق أن تعمل هذا العمل وأن تنتظر على جهة الواجب نهاية أفعال الله في المسكونة كلها ولست أقصد النهاية التي في هذه العيشة فقط الحاضرة لأن ربما لا ينتهي عمل من أعمال الله في هذه الحياة بل أروم بالنهاية في العيشة المأمولة لأن تدبيره ينظر إلى غاية واحدة لهاتين المعيشتين كلتيهما من جهة خلاصنا وتوفيقنا وان كان ينقسم في الزمان إلا أنه ينتظم في الغرض والمعنى وعلى نحو ما يكون أحيانا شتاء وأحيانا ربيع وكل واحد من انقلابي الزمان ينظر إلى غرض واحد هو اكتناز الأثمار وخصبها هذا المجرى يجري في أحوالنا فإذا رأينا كنيستنا مشتتة قد فقدت أولادها تقاس من هذا الشدائد نهاياتها. أهلها مطرودون لا معين عند ضربهم بالسياط والرئيس المتقدم عليها مبعداً إلى أبعد المنافي فلا تتأمل هذه الحوادث فقط لكن توقع من هذه ألحوادث الفوائد التي تحصل في أواخرها من صنوف المجازاة عنها ومن أقسام المكافأة عليها لأنه قال عز قوله "من يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص".

وإذا كان العهد القديم الذي لم تكن السعادة الأبدية معلنة فيه كما يجب كانت فيه الأتعاب والمسرات وكان كثيرون يصبرون على التجارب مع ما عندهم من قليل العزاء فكم بالحري ينبغي أن يصبر عليها أبناء العهد الجديد الذي جاء فاديهم وأنار لهم طريق الخلود. وإذا كان الأنبياء في العهد الأول لم يشكوا من بلايا هذه الحياة ولم تكن عندهم المواعيد التي لنا فكم بالحري يلزمنا نحن من الامتثال والخضوع وقد وعدنا بحياة سعيدة لا توصف. أولئك مع قليل الرجاء الذي لهم مجدوا الله في مصائبهم أفلا تكون نحن أوفر شكراً منهم. وهذا ما سأبينه بوضوح.

الباب العاشر

في أن القدماء انتظروا نهايات الأحوال

بعد أن صار إبراهيم في وقت من الأوقات شيخا وعدم القدرة على أيجاد نسل. وكانت زوجته أقل من الصخرة قدرة على الولادة ولكنه حينئذ وعد أن يكون أبا لبنين كنجوم السماء ورمل البحر في الكثرة فلم ينظر إلى ما كان يعترض ذلك من عوائق وموانع هذه صفتها من كبر سنة ومن امرأته الفاقدة قوة التوليد من كبر سنها ومن طول زمانها ومن طبيعتها لأن ما متعها عن التوليد ليس شيخوختها فقط لكن منعها عنه أيضاً عطل في طبيعتها لأنها عاقراً ولهذا السبب إذ دل بولس على هذا المعنى قال "واذ لم يكن ضعيفا في الأيمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا إذ كان أبن نحو مئة سنة ولا مماتية مستودع سارة" (رو ٤ :١٩) فما قال ميتوتة سارة على بسيط ذاتها لكيلا نتوهم أنه توخى سنها فقط دون أن نعتقد أنه إنما توخى ميتوتة مستودعها بعينه. غير أنه مع هذه الموانع العظيمة في تقديرها على ما ذكرت إذ عرف ما هو وعد الله وكيف هو دقيق الحيلة سريع النفوذ وأن موعده ليست تعوقه شريعة طبيعية ولا صعوبة الأحوال ولا أي صنف آخر من صنوف التعويق لكن موعد لا

يسقط. فلذلك اقتبل ما قيل له وصدق ما وعد به وما ترك الشك بداخله البتة وحكم أن وعد الله مؤهل للتصديق وما بحث كيف وبأي حال تكون هذه المواعيد ولم لم يوعد بذلك في حداثته لكنه وعد به في شيخوختة وفي آخر أوقاته ولذلك يذيع بولس فضله بأن إيمانه وتصديقه كأنا خارجين حد الأمل الإنساني فأمن بالله الحي القاهر الموانع كلها القادر على ما يشاء الغالب العوائق بجملتها وصدق ليس أن يكون أبا فقط لكنه صدق أن يكون أباً لأمم هذا مقدار كثرتها وقد كان شيخاً فانيا وامرأته عجوز عاقر فلم يتأمل جسده مماتا لأنه كان أبن ماية سنة ولا ميتوتة أحشاء سارة وما تقسم رأيه في وعد الله بقلة إيمان لكنه تقوى في تصديقه أذا أعطى الله مجدا وأيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله وبهذا العزم مجد الله تمجيداً جزيلاً لأنه لم يتقدم إلى البحث بل سند كل شيء إلى قدرة الله الممتنع وصفها ولم يكثر من القول لم وكيف. ولكن أعجب من ذلك أنه لما أمر أن يذبح ذلك الابن الوحيد الذي وعد به ما شك ولا في ذلك الوقت ولم تغلبه الهواجس القادرة أن تشكك من ليس يكون مستيقظا وقد كانت كثيرة فأولها هذا الأمر بعينه أترى يا الله تقبل ضحايا هذا مقدارها ويوعز إلى الآباء أن يقتلوا أبناءهم ويقضوا على عمرهم بموت مريع وأن يدفعوا بينهم إلى الهلاك قبل أوانهم أيليق أن تأمرهم بأن يقتلوا بأيديهم المولودين منهم وأن يصبغوا مذابحك بدم هذه صفته وتريدهم أن ترفع يمين أبوتهم سلاحاً على وحيدهم ويشاء أن يكون الصديق أصعب القاتلين فعلاً؟ وتأتي بعد ذلك عواطف طبيعته عند انزعاجها لأنه ما كان أباً فقط لكنه كان أباً لابن غير عادي أبن وحيد حسن المنظر جميل التفطن في زهرة سنه مكمل بجمال نفسه وبحسن جسمه عظيم في أخلاص وده لأنه قد أعطى أباه حياته ذاتها بلا معارضة. ومن شأن البنين الذين هذه حالهم أن يتزايد الشوق أليهم لاسيما أذا كانوا كإسحق وهب بعد ضياع الرجاء خلافاً لنظام الطبيعة. وفوق هذه كلها كان وعد الله أكثر الأسباب استدعاء للشك لأن الموعد كان ضد الأمر الصادر وذلك أن الوعد الذي وعد به كان على هذا المثال. أن يكون نسلك كنجوم السماء والأمر الذي أمر به كان أن يميت ابنه الوحيد الذي اعتزم أن يملأ منه كافة المسكونة التي تجاوزه وأن يدفعه إلى ذبح شنيع ولكن ما تشكك الصديق على هذه الجهة ولا ارتجف ولا عرض له عارض غير لائق مما يعرض لأناس من الفاقدين إيمانهم ولا قال لذاته ما هذا لقد خدعت ولقد طغيت بهذا الأمر أمر الله هيهات أن يكون ذلك لست أقبل أن أصبر قاتل أبني من الممتنع أن أصبغ يميني بدم هذا الوحيد كيف يتم الوعد مع موته أذا اقتلعت الأصل من أين تكون الأغصان أذا استأصلت الشجرة من أين تكون الأثمار أذا طمرت العين من أبن تجري الأنهار أذا ذبحت أبني من أين يحصل لي كثرة البنين المعادلة كثرة النجوم لأن الموعد يضاد هذا الأمر ألا أنه مل قال قول كهذا ولا خطرت بوهمه أفكار كهذه لكنه لجأ إلى قدرة واعده هذه الدقيقة حيلتها السريع نفوذها اللامعة بأضدادها المستعلية فوق شرائع الطبيعة الأوفر اقتدارا من البرايا كلها التي ما تمتلك صنفا مضادا لها وتمم هذا الفعل الذي أمر به بتيقن كثير وذبح ابنه وخصب يمينه بدمه وصبغ به سكينه وأوصل سكينه إلى عنقه ولئن لم يكن ذبك بالفعل إلا أنه بنيته قد تمم هذه الأفعال كلها ولذلك تعجب موسى النبي وقال هذا القول عنه:

"أن الله أمتحن إبراهيم وقال له خذ أبنك المحبوب أسحق ألذي قد أحييته وقربه لي على أحد الجبال التي أصفها لك أنا" أهذه الألفاظ تتفق والموعد وبشارات الوعيد القائلة أنك ستكون أبا لجماعة من البنين وسيكون نسلك كنجوم السماء أنظر كيف بعد هذه الألفاظ كلها أطاع أن يذبح أبنه واقتبل ذلك وذبح ولده الذي منه توقع أن

تكون له هذه الكثرة من البنين وبادر إلى أن يقتل هذا ويذبحه ويقدمه ضحية لله وبولس أيضاً قد تعجب من هذه الجهة وكلله بهذه الصفة وأذاع ذكره قائلاً "بألا يمان قدم إبراهيم أسحق أبنه وهو مجرب" ثم أرنا الفعل الذي فعله ما أعظمه وما أظهره من خلوص أمانته فأستتلى بهذا اللفظ "قدم الذي قبل المواعيد وحيده" فلم يكن له أبنان صالحان وأنه توقع أذا قتل هذا سيكون أباً لكثرة بنيه من ذلك الآخر لكنه أنما أمتلك هذا وحده ومن هذا وحده تعلقت عناصر الوعد ألا أنه مع ذلك اختار أن يذبحه وكما أنه في الوعد بولادته لم يرتب من ضعف طبيعته ولا من ضعف طبيعة امرأته فكذلك ما ضعف هنا بموته.

فتعلم هذه الأفعال وقاسيها بالأفعال الحادثة الآن فتصبر صغر نفسك وتعاين حقارتك لكثرة ارتيابك وتعلم علم يقينا أن ولا من أي جهة من الجهات يمكن أن يشك في عناية الله وسياستها لكنك تشك لأنك تلتمس دائما معرفة سياستها وتطالب بعلل الحوادث الحادثة واحدة فواحدة ولو فعل إبراهيم هكذا لحاد عن أيمانه ولكنه لم يبحث عما قيل له ولا فتش عنه فلذلك أشرق فضله وحظى بجميع ما وعد به ولم يشك في وعد الله الأول ولا في الأمر الذي أمر به بعده ولا توهم أن ما أمر به قد يكون مانعا للموعد ولا ظن أن التضحية تكون مبطلة للوعد ولا سقط إلى اليأس من الوعد على أنه قد حصل على نهاية ما وعد به بعينه.

ولا تقل لي هذا القول أن الله أمر إبراهيم بذبح أبنه ولكنه كان عازماً أن يمنعه عن ذلك لأن إبراهيم لم يعرف نية الله ولا أيقن أنه سيمتنع عن ذبحه. لكنه مد عزمه ولذلك نودي باسمه مرتين من السماء لأنه ما قال له يا إبراهيم على بسيط ذات دعوته لكنه قال يا إبراهيم يا إبراهيم مكررا مناداته بشدة لعلمه بعزمه الأكيد على ذبحه وحاجزا اختياره الممتد إلى تضحيته. على هذا المثال كان فعله ولم يظهر منه البتة شك وعلة ذلك أنه لم يبحث عن أغراض الله.

وما قولك في يوسف العفيف قال لي أفلم يتكبد مصابا هذه صعوبته لأنه كان قد أعطى من الله نعمة عظيمة من موعده وحصلت الحوادث الحادثة عليه أيضاً أضداد للمواعيد التي وعد بها لأن الوعد كان من شأنه أن يسجد به أخوته كما ظهر له في حلمي النجوم والحزم ألا أن العوارض التي عرضت له بعد هذين الحلمين كانت مضادة لكليهما فأولها حرب صعبة ثارت عليه في منزل أبيه من أخوته بسبب حلمه فنبذوا شرائع الأخوة معه وفكروا مرابط ود النسبة وزعزعوا أوضاع طبيعتهم وصاروا أعداء محاربين أشد من تنمر الذئاب على أخيهم وبمنزلة وحوش وحشية فاقدة استئناسها قد جذبت فيما بينها خروفا في وسطها كذلك كانوا كل يوم يتأمرون عليه وكانوا بهذه الحرب وحسدهم الفاقد القياس والظالم وبتحرقهم وبغضهم يدبرون طريقة قتله كل يوم أذا اضطرم هذا الأتون والتهبت هذه النار وإذا لم يمكنهم أن يعملوا به عملاً مكروها في المنزل بسبب منزلته عند أبيه ثم حدث بعد ذلك أن وجدوه في معزلة عن ألحاظ أبيه وصادفوه في البرية حاملا لهم طعاما موافياً إلى افتقادهم فما احتشموا ولا خجلوا من مائدة أخيهم لكنهم أرهقوا سيوفهم ليقتلوه دون أن يأتي ذنباً ولكن بسبب الحلمين اللذين لأجلهم كان يجب أن يكللوه وأن يذيعوا ذكره فصاروا حاسدين له محاربين ألا أن ذلك الفاضل وعلى هذه الحال ما ارتجع عن الفتهم لكنه أظهر وره إياهم في حال خبثهم هذا الجزيل تقديره ألا أنهم نهضوا إلى قتله وقد قتلته طائفة منهم وخضبوا يمينهم بدمه وتمموا قتل أخيهم إلا أن حكمة الله وقدرته الدقيقة حيلتها السريعة النفوذ في العوارض العسر سلوكها اختلسته من أيديهم النجسة لأن الواحد من إخوته أشار عليهم بمشورة تبعدهم عن

التدنيس بقتله فحقق الله مشورته ومنع ذبحه. وما وقفت لعمري الشدائد ههنا لكنها نفذت إلى أبعد غاية أيضاً أذا لما منعوا من قتله غلى عليه غيظهم وتجددت أفعال تحرقهم وكان نموذج شرهم عظيما فنقل غضبهم إلى غرض أخر لأنهم جردوه من ثوبه وكتفوه وطرحوه في جب أولئك الجفاة المتوحشين الزائلة إنسانيتهم وجلسوا فتمتعوا بالمائدة التي حملها هو إليهم وكان هو في الجب مرتاعا لأجل غايات ما يجري عليه وأولئك قد تنعموا وسكروا وما وقف عند هذه الأفعال جنونهم لكنهم أذا أبصروا أناسا أجانب مسافرين إلى أبعد من بلدهم منحدرين إلى مصر تناولوا أخاهم فباعوه لهم مخترعين له من هذه الجهة موتاً آخر أطول مدة مملؤاً شقاء كثيراً لأنه كان صبياً متربياً بحرية كثيرة في منزل أبيه بعيداً عن العبودية بالجملة ومن الشقاء الذي فيها فتفطن ما هو المصاب الذي قاساه عن غفلة إذ صار بدل حر عبداً وبدل مدني غريباً مصطبراً على أسر في غاية الشدة فلم يقاس ألم العبودية وحدها ولكنه حصل منفصلا من أبيه ومن أهله كلهم عاريا غريبا فاقدا منزله ومدينته لأن ما الذي لم يكن فيه كفاية أن يزعجه وقد أصابته هذه المصائب وهي مداهمة المصيبة إياه وعدمه انتظارها وحلولها به بخلاف أمله وخلو من التدرب بها وصعوبة ممارستها وورودها إليه من أخوته الذين كان يحبهم وما ظلمهم ظلما لا صغيراً ولا كبيراً بل الذين قد أحسن هو إليهم لكمه مع ذبك ما أرتجف ولا بعارض من هذه العوارض.

أما أولئك التجار فقد سيروه إلى مصر فاستبدل عبودية بعبودية لأن هنالك أيضاً صار عبدا واسكن في منزل مصري وهو العبراني الحسيب قد صار إلى حال مضعفة ولا ريب أنه حينئذ تذكر حلميه اللذين بشراه بأضداد ما جرى له ولكنه لم يبحث قائلا ما السبب في هذه العوارض الحادثة إذ بينما كان عبدا كان الظالمون قاتلوه يتنعمون في منزل أبيهم وهذا الذي ارتجى له أن يتملك عليهم صار عبدا مباعا أسيرا في غايته مقاسيا أضداد ما وعد به لأن ما كان صعباً حينئذ أنه لم يحظ بالمملكة فقط لكن أصعب من ذلك أنه خاب من وطنه وحريته وعدم النظر إلى أبيه وما وقفت مساعي آلامه لكن حفرت له هناك هاوية أعمق قعرا حوت موتا وذبحا شنيعين وقد كان موتا يجلب عارا وذبحا ممتلئا خزيا لأن التي خدمها أبصرته بعينين ظالمتين وصيدت بحسن الشباب واستباها بهاء وجعه ونظمت له صنوفا من غشها واحتيالها وبسطت له شباك الفسق ولبثت ترصده كل يوم داخل شباكها وتلقيه في هاوية الفسق بها وتدفعه إلى موت قد عدم أن بكون ميتا وكانت كل يوم تبرز إلى هذا الاقتناص متسلحة بعشقها وحدث أنها وجدته في وقت من الأوقات وحده فاجتذبته إلى المضجع الظالم غصبا واضطرته أن يخوض زواجا وارتاءت أن تفسد عفته ألا أن ذلك الصديق ما أصابه من هذا العارض شيء لكنه ظهر فوق اغتصاب شهوته وأراجيف حداثة سنة وإزعاجات شبيبته شفق على نفسه من لمس تلك ومن نظرها ومن جنونها بسهولة كثيرة وصار كنسر باسط جناح عفته ألعالي وخلع ثيابه وتركها في يديها الفاسقتين وخرج عاريا من ثيابه مشتملا لباس عفته بهيا ظاهراً حسنه أحسن من ديباجة الملك بعينها. فهناك أرهف له السيف أيضا واضمر له الموت إضمارا متتابعا ورفعت أمواجه أعظم رفعاً لأن جنون تلك المرأة وهيامها أضطرم أشد من اضطرام الأتون البابلي التهابا لأن شهوتها حينئذ نهضت أعظم نهوض وغضبها الذي هو مرض آخر أصعب أمراض هواها صوبته بوحشية كثيرة عليه ونظرت إلى قتله وسارعت إلى السيف وجمحت إلى ذبحه وقد كان أزوغ الأعمال عن الشريعة واجتهدت أن تقتل المجاهد ضد الشر المناضل بالصبر والثبات وبادرت إلى رجلها وأخبرته بما عليها ليس على حذو ما اشتملت عليه حقيقته أمرها وفعلها ولكن على نحو ما اخترعته حيلتها بخبثها

وحققت عنده ما أرادته بثلبها كمظلومة وطلبت الانتصار منه لها حاملة بيدها النجستين ثياب الشاب برهانا لما قرفته به فما استحضر ذلك القاضي الطائش رأيه إلى مجلس حكمه ذلك الشاب المثلوب ولا سمع منه كلمة ولكنه حكم على من لم يبصر مجلس حكمه كما على شرير مشهرا أمره وحبسه في الحبس وغله بسلاسل وصار أسير مع السحرة ومع اللصوص ونابش القبور مع قاتلي الناس مع المتجاسرين على الأفعال الواصلة إلى الغاية القصوى من قباحتها إلا أنه مع ذلك أزعجه عارض من هذه العوارض ولبث في السجن معاقبا على محامده التي كان واجبا أن يكلل لأجلها ويشاد بذكرها.

وفضله ظهر في أنه ما ارتجف ولا في هذه الحال ولا قال ما هو هذا الذي انتظره أن أملك على إخوتي؟ ما خبت فقط من هذه الكرامة لكنني قد خيت من وطني ومن منزلي ومن والدي ومن حريتي ومن راحتي وقبيلتي الذين أملت أن يسجدوا لي ثم بعد ذبحهم أبادي باعوني وصرت عبدا وما وقفت الملمات في هذه الحوادث لكن الهوة لدى في سائر المواضع والصخور تعثرني في كل مكان لأن بعد اغتيال أخوتي لي وذبحهم أياي وبعد استعبادي الأول والقاني اخترع لي موت أصعب من الأول لأنه أنشأ لي اغتيالا وتشريدا ومجلس قضاء وتغيرا فيه خزي كثير وذبح ولد لي ذبحا موجعا ودون أن أطالب بجواب حملت إلى الحبس وطوقت بسلاسل مع أشر الناس نوعا ورئيس السقاة تخلص من سلسلته ومن حبسه وأما أنا فما قدرت أن أستمتع بعده ولا بصنف من راحته ذلك خرج كما فسرت له حلمه وأنا فحاصل في ملمات رديئة قد عدمت تلافيها أفهذه الشدائد هي التي تقدمت تلك المناظر فدلت عليها أهذه النوائب أوضحها عدد النجوم أهذه المصائب بينتها الحزم أين دلائل المواعيد أين علامات البشارة أتراني انخدعت ألعلي أنطغيت لأن كيف يسجد أخوتي فيما بعد للعبد الأسير المعتقل المظنون أنه فاسق المتورط في خطر الشدائد الواصلة إلى نهايتها. لقد ضاعت تلك البشارة وأهلكناها إلا أنه ما ذكر من هذه الأقوال صنفا ولا تفطن في خاطر منها لكنه صبر إلى الغاية عارفا دقة حيلة الله تعالى بعينها وحكمته السريع نفوذها وليس مستعجبا أنه ما تشكك فقط لكن أعجب من ذلك أنه فاخر بالحوادث عليه.

وما قولك في داود النبي أفما قاس أصعب الملمات مراسا بعد أن مسح ملكا وبعد أن تسلم قضيب الملك على رهط العبرانيين باختيار الله جل ذكره وبعد أن ظفر ذلك الظفر المبهر بجليات صار شاول يحاربه مرسلا إياه إلى حروب شديد خطرها مطرودا إلى البراري طردا متصلا تائها هاربا خائبا من مدينته ومنزله مقيما عند الغرباء المحاربين قبيلته الأوفر عداوة لرهطه مصطبرا على حياة أصعب قاساها بعد حضور صموئيل وبعد دهنه إياه بالزيت المقدس وبعد وعده أيضاً إياه بالمملكة بعد تحصيله عصاة التملك وتاجه بعد انتداب الله له واختياره ومع ذلك فما أرتاب بعارض من هذه العوارض ولا قال أين ذلك الذي انتظره أنا الملك المرتجى أن أتمتع برياسة هذا مقدار سموها ولم أصر فردا بعيدا عن الملك فقط لكنني قد صرت تائها هاربا عادما مدينتي ومنزلي طائرا حاصلا في بلد الغرباء معوزا من طعامي الضروري أصاب بهذه النوائب كل يوم أتورط في الخطر ملفوظا بى أين مواعيد التملك أين تلك الرياسة ألا أنه ما قال قولا من هذه الأقوال ولا تفطن فيه بفكره ولا تشكك بسبب الملمات التي تأتيه لكنه اصطبر منتظرا نهاية المواعيد.

وقد يتجه لي أن أصف أناسا جزيلا عددهم غير هؤلاء سقطوا في نوائب صعبه وما ارتجفوا لكنهم تمسكوا بمجد الله عز وجل وأن كانت النوائب العارضة لهم قد عرضت أضداد للمواعيد التي وعدوا بها وتكللوا بالأكاليل التي هي بهية حسنها لأجل صبرهم هذا الواصلة جودت إلى غايتها نتصبر أنت أيها الحبيب إلى الغاية فانك ستصل على كل حال إليها أما في هذه الدنيا وأما في الدهر المأمول واخضع لسياسة عناية الله الفائق إدراكها مراعيا أحوالك ولا تقل كيف تأتي هذه النوائب ولا تفتش عن مذاهب أعمال الله البديعة في ذاتها.

الباب الحادي عشر

في أن بداية أعمال الله كثيراً ما تخالف نهايتها
وأن الصديقين أبصروا في الابتداء العوارض كلها مضادة لآمالهم

لأنه ولا أولئك الذين تحقق فضلهم ما طلبوا معرفة ما لم يفهموه من أعمال الله لكنهم أذا رأوا الحوادث كلها تفض بهم إلى القنوط واليأس من لدن الفكر الإنساني لم يرتجفوا على هذه الحال ولم يتشككوا بل تحملوها بأوفر شجاعتهم مؤمنين باقتدار من وعدهم منتظرين منحه العالية التي أملوها ولم يهبطوا إلى اليأس من تلقاء مضادة الحوادث التي مارسوها إلا أنهم علموا علما يقينا أن من وعدهم دقيق الحيلة يقتدر بفعل حكمته بعد اليأس من الأحوال أن يستعيدها أفضل مما كانت سالفا. فأن حصلت أنت أيها الحبيب في حال كهذه فمجد الله كثيراً وأن نقضت عمرك في الملمات المستصعبة فاشكر له على هذه الخال ولا تشكن أصلا لعلمك بعناية الله علما واضحا ومعرفتك لسياسته الفائقة معرفتها التي ما يقتدر المخلوقون على معرفتها ولا ترجمتها. وإيقانك أن نوائب الدنيا كلها ستنال الغاية وإنها لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا وأن لا مقارنة بين أماني الحياة الحاضرة.

فأن سمه سامع ذكر المكافأة المرتجاة وتضجر من طول المدى وحاول أن يعرف ما سيكون له في هذه الدنيا فنقول له أن الحياة الصادقة والأحوال الحقيقية الفاقدة تزعزعها تنتظرنا لأن حياتنا الحاضرة طريق وتلك وطن والحظوظ التي هنا تماثل أزهار ربيعية والتي هناك تشابه الصخور الممنوع تزعزعها فالأكاليل هناك وأنواع المكافأة هناك الجوائز ورايات الظفر هناك العذاب والعقوبات لفاعلي المساوئ مما يمتنع احتمالها فلا تظن أن التوفيق في الحياة يعطى الإنسان أيمانا بل يوجد كثيرون بعيدين عن الأيمان في وسط تنعمهم وآخرون يؤمنون وسط المصائب العديدة وكثيرون قد تعرقلوا ألا أن معظمهم قد وقفوا وثبتوا وجمعوا لأنفسهم ثوابا أعظم نفعا وما أنقلب عزمهم لا باقتدار الذين اغتالوا عليهم ولا بصعوبة أزمانهم والمفتونون فليفكروا في نفوسهم أن الثلاثة الفتية اختلعوا من أملاكهم الطاهرة ومن هيكلهم ومحرابهم ومن اهتمامهم الآخر كله الذي في شريعتهم وخلدوا في وسط بلد غريبة فحفظوا شريعتهم بأبلغ استقصائهم وحفظها دانيال النبي نظيرهم وآخرون كثيرون وأقوام لما ساروا في السبي بالأسر ما ضرهم ذلك ضررا وأناس غيرهم لبثوا في منازلهم وتمتعوا بكافة الخيرات التي في وطنهم فعصوا الله وأوجب الحكم عليهم.

الباب الثاني عشر

في قول قائل لم أبقى الله في العالم الناس الخبثاء والشياطين وإبليس المحال

فأن خرجت من البحث فيما مضى وأردت أن تبحث أيضاً في أعمال الله فانك تجد فيها أشياء عديدة تحير فهمك فتقول لم أطلقت البدع في الدين لم أهمل إبليس المحال لم تركوا الشياطين ههنا لم استبقى الخبثاء من الناس الذين يعرقلون أناسا كثيرين ونبحث عن رأس هذه المطالب كلها لم يعطى معاند المسيح الحاوي مقدرة هذا مبلغها لإطغاء الناس تبلغ إلى أن يقول المسيح "انه يضل ولو أمكن المختارين"، لكننا ما ينبغي لنا أن نطلب هذه الغوامض لكن سبيلنا أيضاً أن نطلق لفعل حكمة الله الممتنع إدراكه مراعاته لأن الإنسان المتعود الإقامة في الأصقاع الباردة أن وافته أمواج جزيل عددها وان تقاطرت عليه أمطار كثيرة فليس مستعجبا أنها لا تضره فقط لكن أعجب من ذلك أنه يصير أقوى مما كان بأسا والضعيف المتراخي المتضجر طالما سقط من غير أن يؤذيه أحد وان ابتغيت أن تعرف وصفا يوضح هذا فأسمع جواباً معروفاً عندنا لأن أقوالا كثيرة توجد واضحة بينه عند مدبري الأحوال كلها تدبيرا مختلفا فالذي قد عرفنا نحن فهو هذا إلا أننا نقول إن هذه الشكوك توجد حتى يزداد ظفر الأبطال الصناديد وهذا الغرض أوضحه الله عز وجل حين جاوب أيوب قائلا أتظن أني أنزلت بك النازلة لغرض آخر إلا لكي تستبين عدلا وبولس الرسول قد قال أنه يجب أن يوجد فيما بينكم بدع الاختبار والهوى ليصير المختبرون فيكم ظاهرين فإذا سمعته أنت يقول يجب أن يوجد بينكم بدع الاختبار والهوى فلا تظنه قال هذا القول موعزا بهذا البدع أو مشترعا إياها أبعد هذا الوهم عنك لكنه تقدم فذكر ما يرجى كونه وسبق فعرف ما كان فيه من الفائدة من هذا الوجه لأنه قال حينئذ تستبين لكم الفضيلة أبين وضوحا.

وهكذا فالخبثاء يستبقون لآجل علة أخرى لهم فكثيرون منهم نجوا قبل موتهم فبولس الرسول على هذه الطريقة خلص واللص على هذه الحال وكذا الزانية على هذه السجية استخلص والعشار بهذا الغرض تخلص وأناس آخرون كثيرون فلو كانوا اختطفوا من هذه الدنيا قبل انتقالهم لما كان استخلص ولا واحد منهم وبولس الرسول قد ذكر في وصف معاند المسيح علة أخرى وان سألت وما هي هذه العلة أجبتك هي التي تحجز عن اليهود من هذا الوجه كل احتجاج لآن أي عقل وأي عفو يحصل لهم إذ لم يتقبلوا المسيح الهنا وهم متوقعون أن يؤمنوا بذلك فلذلك قال حتى يوجب الحكم عليهم كلهم إذ لم يصدقوا الحق الذي هو المسيح لكنهم ارتضوا بالظلم لأنهم لم يؤمنوا بالمسيح لما قال عن ذاته أنه اله قالوا لهذا السبب نرجمك بالحجارة لأنك وأنت إنسان افتجعل ذاتك الها على أنهم قد سمعوه برفع أكثر أفعاله إلى أبيه بعينه وقائلاً أنه أنما جاء برأي أبيه مبرهنا قوله هذا بشواهد كثيرة فما الذي يقولون إذا أقتبلوا معاند المسيح القائل عن ذاته انه اله ولا يذكر أبا لكنه يعمل بخلاف ذلك بقوله عن ذاته أنه اله وهذا الفعل قد تقدم المسيح الهنا فعيرهم به وقال هذا القول أنا جئت باسم أبي فما قبلتموني فإذا جاءكم آخر باسم ذاته إياه ستقبلون لآجل هذه الأغراض تستبقى الشكوك فان ذكرت إلى الذين تشككوا وفتنوا اذكر لك أنا الذين أشرق فضلهم من هذه الجهة إشراقا عظيما وأقول لك أيضاً هذا القول بعينه أنه ما يجب لأجل جهل أناس آخرين وزوال تيقظهم أن يهمل القادرون أن يستفيقوا ويتيقظوا ويتكللوا من هذه المحن بأكاليل جزيل

عددها لأن هؤلاء قد تألموا ولكنهم أخذوا من ألامهم سببا لنصرتهم وتمجيدهم وهم يوبخون من جعلوا الآلام سببا لكفرتهم لأن سيرتهم أوفر بهاء وأشد بأسا.

الباب الثالث عشر

في أن المستفيقين لا يضرهم عارض ولا يعرقلهم

لأن إبراهيم بأي كاهن أتعظ وبأي معلمين وبأية موعظة وبأية ومعاتبة وبأية مشورة تمانع لأن الكتب ما كانت حينئذ ولا الشريعة ولا الأنبياء لكنه سار بحراً قد عدم المسير فيه وسلك طريقا قد فقدت تمهيدها فهذه الأفعال ما أضرته ضررا لكنه أشرق في فضيلته إشراقا وصل فيه إلى أن أبان العلوم التي أزمع المسيح الهنا أن يعملها للناس بعد زمان طويل بعد الأنبياء بعد الشريعة والتأديب الجزيل تقديره الكائن بآياته وعجائبه وسبق هو فأظهرها بأفعاله وأوضح حبا خالصا حاراً وأعرض عن الأموال وأشفق على أهله وابتعد عن كل الصلف واجتنب العيشة الرطبة عائشا عيشة أبلغ استقصاء من عيشه النساك الذين توجهوا إلى قمم الجبال لأنه ما كان له بيت لكن ظل أوراق الشجر كان سقفا للصديق وإذ كان غريبا ما صار في ضيافة الغرباء وأتيا لكن جعل هذه الضيافة في غربته عملا له دائما عند اقتباله في الظهيرة المجتازين به وخدمته ولطفه بهم وتمم بذاته هذا العمل كله وجعل امرأته شريكة له في هذه التجارة النافعة وما قولك فيما فعله مع أبن أخيه مع أن هذا لم يحفظ له جميلا وذلك حينما غلب لوط من مجاوريه فترك إبراهيم راحته وإستصحب جماعة غلمانه متدرعين سلاحهم وزج ذاته في خطر ظاهر. ولما أوعز إليه بترك منزله ومضيه إلى أرض غريبة أفما أطاع لوقته وساعته وترك وطنه وأصدقاءه ومناسيبه وأهله كلهم وأطاع أيعاز أمره فترك أملاكه الواضحة وجنح إلى أملاك عدمت أن تكون واضحة لأجل وعد الله جل وعز ذكره وهكذا كان ما كان من أمانته المتزايدة. وبعد هذه الأحوال كلها دهمته مجاعة فما أرتجف ولا اضطرب لمن أظهر طاعته هذه بعينها وكلمته وفلسفته وصبره وانحدر إلى مصر وأطاع الله تعالى الذي أمره بهذه الأفعال وأمثالها واختلست منه امرأته وأبصرها مهانة فاصطبر على فجائع أصعب من الموت مراساً وانجرح في أشد مقاتله خطرا لأن قل لي ماذا يكون أثقل من أخذ أعجمي لامرأته إلى باطن دياره الملوكية فأحتمل هذه النوائب كلها بأوفر حلاوة ولم يتزعزع بل حفظ عزمه في زماني الشدة والرخاء متساويا. وما قولك فيه حين وعد بابنه؟ أفلم تكن الموانع من أفكاره جزيلا عددها فسكنها كلها وبطل الارتجاف الناشئ منها ولمع منها أمانته وفضله. وحين أوعز أليه أن يقدمه ضحية أفلم تكن حاله حال من يقدمه إلى عروسه؟ على هذه الطريقة قدمه وخرج من طبيعته بعينها وتبرأ من أن يوجد أنسانا ورفع ضحية جديدة بديعة وجاهد هذا الجهاد وحده وما شارك فيه امرأة ولا خادما ولا أحد غيرها ممن كان معه لأنه عرف تماما أنه إن أعلم أحدا بالأمر يحاول أن يمنعه عنه فلذلك مارس هو وحده هذا السعي وخاض فيه واجتهد فيه وتكلل وذاع ذكره فأي كاهن علمه هذه المحاد إي معلم أفاده إياها أم أي نبي؟ لا أحد لكنه إذ كان قد امتلك نفسا حية عزمها قوي لهذا سار في أفعاله حكيما.

وما قولك في نوح أي كاهن إستصحب أم أي معلم ومؤدب لأنه لما انفسدت المسكونة كلها بالخبث سلك هو وحده الطريق القويمة وحفظ الفضيلة وأشرق فيها هذا الإشراق الذي أوصله إلى التخلص من غرق المسكونة وإلى خلاص آخرين معه من مهاول الخطر التي أحاطت بالخليقة. من أي جهة صار صديقا من أية طريقة صار تاما وبأي صورة تهذب لا أحد. وبعكس ذلك أبن هذا الفاضل مع أنه كان قد صار له أبوه معلما داخل بيته بفضيلته واستمتع بوعظه وبألفاظه وعاين من أفعاله الغاية التي وصلت اليها وشاهد من المصيبة ردعها ومن الخلاص منها عدله ومع ذلك صار خبيثا مستهجنا والده وأذاع عري أبيه وشهرها.

أرأيت أن الحاجة في كل مكان إلى نفس قوي عزمها؟ وما قولك في أيوب قل لي من من الأنبياء سمع وبأي تعليم استنار. لم يستفد شيئا من أحد. لكنه مع كونه لم يحفظ ولا بواحد من المعلمين أظهر كل صورة من الفضيلة باستقصاء كثير في إبداعها لأنه أشرك الناس في خبراته ومقتنياته وبذل لهم جسده بعينه واقتبل المسافرين في منزله وكان منزله لهم أكثر مما كان لمالكة وأنتصر بقوة جسده للمظلومين وأبكم المتعنتين بفهم لسانه وحكمته وأظهر الطريقة الإنجيلية لامعة بكافة أفعاله وبيان ذلك أن المسيح قال جل قوله "طوبى للمساكين بالروح" فهذا ألتطويب احكمه بأفعاله عند قوله. "أن كنت احتقرت قضية غلامي أو جاريتي عند احتكامهما بحضرتي لأني ماذا أعمل إذا تصفح الرب طريقتي أليس كما كنت في البطن كانا هما فكنا في جوف هو ذاك بعينه" وقال المسيح أيضا "طوبى للو دعاء فأنهم يرثون الأرض" ومن كان أوفر دعة من ذلك الفاضل الذي قال عبيده في وصفه "من يعطينا أن تشبع من لحمانه" فبهذه الصفة كانوا شديدي العشق له قال "طوبى للحزانى فأنهم يتعزون" وأيوب ما كان خائبا من هذه الفضيلة اسمعه ماذا قال "وأن كنت أخطأت كارها خائبا من هذه كثرة رهط شعبي عن الاعتراف لهم باجتنابي الشريعة" فمن كانت هذه الحال حاله فمن المبين أنه قد كان ينوح بإفراط فيه كثيرا قال "طوبى للجياع والعطاش إلى البر" فانظر إلى هذا الفعل محكما عنده بإفراط فيه قال "كسرت أضراس الظالمين واختلست من وسط أسنانهم ما اختطفوا ولبست العدل وتسربلت الانصاف كمنطقة" قال "طوبى للرحماء فأنهم يرحمون" فهذا الفاضل ما كان رحوما بأمواله فقط ولا بالبأسه العراة وإطعامه الجياع وتلافيه الترمل وستره اليتيم وتسليته جوانح طبيعتنا لكنه كان رحوما مع ذلك بتحنن على كل فاقد قوته وقد كان بصورة أب مشاع لكل أهل بلده يتحنن على مصائب واحد فواحد منهم فيتلافى بعضها وينوح على بعضها وينوح على بعضها وبألفاظه وبتحننه وبأفعاله وبدموعه وبكل حال كان يعضد الذين قي المصائب صائرا لجماعتهم ميناء مشاعا.

قال المسيح "طوبى لأتقياء القلب فأنهم يعاينون الله" فهذه الفضيلة كانت له على حذو ما أتفق واسمع الله عز وجل شاهدا له قائلا "أنه إنسان بار يتقي الله ويحيد عن الشر" قال المسيح "طوبى للمطرودين من أجل البر فأن لهم ملكوت السموات" فقد صار له من هذا المحمدة سعة جهاد ومنها أكتسب ظفره

العظيم لأنه ما طرده أناس لكن الشيطان القديم قي الشريعة طرده لأنه بعد أن أفرغ كافة حيله جاء إليه وطرده من مسكنه ومنزله ووطنه وأمواله وأخرجه من قنيناته وأبنائه ومن صحة جسمه بعينها وطرده إلى المربلة ودفعه إلى مجاعة صعبة شدتها فضلا عن الناس الذين أوصلوا أليها أذاهم من نواح مختلفة قال "طوبأكم إذا طردوكم وعيروكم وقالوا فيكم كل كلمة شريرة كاذبين افرحوا وتهللوا فأن أجركم عظيم في ملكوت السموات"

وقد استمد من هذا التطويب مجدا عظيما وبيان ذلك أن الذين حضروا عنده حينئذ ثلبوه بقولهم أنه أنما عوقب من جراء ذنوبه وأسهبوا عليه أقوالا كاذبة مملوءة من خبثهم لكنه مع ذلك إذ شارف هؤلاء أن يتورطوا في خطر اتهامهم إياه اختطفهم من الجائحة المسيرة من الله ولم يضغطن عليهم حقدا ولا من أجل أمر الكلمات التي قرفوه بها وفي هذا الفعل أيضا تمم تلك الوصية "أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم" لأنه أحبهم وابتهل من أجلهم وأزال غيظ الله عليهم وحل خطيتهم على أنه ما سمع أنبياء ولا أناجيل ولا كهنة ولا معلمين ولا أحد آخر مشيرا عليه بفعل الفضيلة: أرأيت نفسا ما كان أعظم صبرها وكيف كانت لذاتها من الفضيلة ولم تتهذب بتعلم غيرها ولم يرث من آبائه شيئا من الفضائل لأنهم كانوا مظهرين رذيلتهم بكثرة حتى أن بولس الرسول قد قال في وصف جسده "لا يكونن أحد منكم زانيا أو مستبيحا كعيسو الذي باع بكوريته بأكلة واحدة".

الباب الرابع عشر

"في أن الشكوك كانت في أيام الرسل كثيرة وأن المساقين إلى العذاب كانوا أكثر وأن رؤساء الديانة ومجامعهم كانوا مهاجئين دواما بالقتل السريع".

قل لي ما احتجاجك في هذا المعنى إذ قد حدث في أيام الرسل حوادث كثيرة مثل هذه واسمع ما قاله بولس الرسول أنه "قد رجع عنى جماعة الذين في آسيا منهم فيجالوس وهرموجانس" وهكذا نجد أن المعلمين المسيحيين قد سكنوا السجون وقاسوا من أهلهم ومن الغرباء منهم فوادح في غاية الشدة وقاومهم معلمون كذبة أشد من الذئاب افتراسا وقد تقدم بولس فذكر هذه الحوادث لأهل أفسس إذ أستحضرهم إلى جزيرة ميليتس وقال لهم "أنا قد عرفت أنه سيدخل إليكم بعد انصرا في ذئاب لا يشفقون على الرعية ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون أقوالا مقلوبة ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم" أفما اظهر له الاسكندر النحاس شرورا جزيلة وطارده في كل مكان وحاربه وقارعه وأوقفه في جهاد هذا مبلغ تقديره أفضى به أن يوصى تلميذه ويقول له احترس منه فأنه قد عاند أقوالنا كثيرا.

أو ما أفسد أناس من الرسل الكذبة أمة الغلاطيين بجملتها وانعطفوا إلى اليهود أيضا أو ما رجم استفانوس جزاء مناداته بالإيمان. الم يقطع هيرودس رأس يعقوب ليرضى اليهود أعداء المسيحية وهكذا من كل ناحية ثارت زوابع الفتن والقلاقل حتى أثرت على كثيرين ألا أن المتمكنين في الدين ثبتوا واسمع ما يقوله بولس إذ يناشد أهل فيلبي "أريدكم أن تعلموا ياأخوتي أن أحوالي قد أقبلت إلى نجاح البشارة أكثر وأزيد حتى أن الأكثرين من إخوتنا في أمانة ربا عند ثقتهم بوثقي وتعويلهم عليها يتجاسرون خلوا من خوف أن يتكلموا كلام الله بأوفر مجاهرة" أعرفت شجاعتهم أعرفت مجاهرتهم أرأيت قوة يقينهم أرأبت عزمهم؟ قد أبصروا معلمهم في الحبس مطوقا بسلسلة مخنوقا مؤذى مقاسيا مصائب جزيلا عددها أنهم ما فتنوا ولا تشككوا ولا ارتجفوا فقط لكن أعجب من ذبك أنهم أبدوا نشاطا أعظم واتخذوا آلام معلمهم سببا لنجاح جزيل بجهادهم.

ولكنك تقول لي إلا أن أناسا آخرين انسحبوا إلى ورائهم فأقول لك نعم لست أقاومك أنا في ذلك وفي كل زمان يوجد كثيرون إذا حدثت هذه الحوادث انسحبوا إلى ورائهم ولكن ما قد قلته دفعات كثيرة أقواله الآن سبيلهم أن يحسبوا هذا الارتجاع إلى الوراء لأنفسهم ولا ينسبونه إلى طبيعة الحوادث لأن المسيح الهنا حين مضى من هنا خلف لنا هذا المورث إذ قال "في العالم سيكون لكم ضيق وستقادون إلى حضرة ملوك وأمراء وسيكون زمان يظن فيه كل من يقتلكم أنه يقرب لله قربانا".

فمن هذه الحكمة نفهم أمر الذين تشككوا في كل زمان ليس في عهد الرسل فقط بل أن كثيرين تشككوا بصلب سيدنا بعينه وسيد الكل وصاروا ازوع من غيرهم عن الشريعة وأكثر جسارة على نقضها حتى أنهم عند صلبهم إياه قرعوه قائلين "يا من ينقض هذا الهيكل ويبنيه في ثلاثة أيام" خلصت آخرين فلماذا لا تخلص ذاتك" "أن كنت أبن الله فأنحدر من صليبك فنؤمن بك" إلا أن هؤلاء لا ينبغي أن يحتجوا بعثرة الصليب وجهالته وذلك أن اللص يوبخ هؤلاء كلهم وأمثالهم لأن ذلك قد أبصره مصلوبا معه فليس عجيبا أنه ما تشكك فيه لكن أعجب من ذلك أنه اتخذ من هذه الجهة لتكريمه موضوعا عظيما للتفلسف واعتلى أعلى من الأوهام الإنسانية كلها وخف وارتفع بريش أمانته وتفلسف من الحظوظ المأمولة لأنه إذ أبصره مصلوبا باليا مضروبا مهانا وشاربا مرارة مبصوقا عليه يستهزئ به محفل جزيلا عدده قد أوجب الحكم عليه مجلس القضاء مسوقا إلى عقوبة الموت فما تشكك بصنف من هذه الأصناف لكنه إذ أبصر صليبه ومساميره واستهزاء جزيلا تقديره من كثرة الحاضرين والمجتازين المنفسد رأيهم سلك هو الطريقة القويمة قائلا "أذكرني يأرب أذا جئت في ملكوتك" وأبكم اللص الثالب إياه واعترف بخطاياه وتفلسف في وصف القيامة وهذه كانت أفعاله وما أبصر موتى مقامين ولا برصا مطهرين ولا بحرا ملجما ولا شياطين مطرودين ولا عرج مقومين ولا الجرائح الأخرى التي شاهدها رهط اليهود الزائل شكرهم وفهمهم وبعد أن أبصروها صلبوه لكن هذا اللص أبصره مصلوبا واعترف به الها وذكر مملكته وتفلسف في النعم المأمولة وأولئك أبصروه مخترعا عجائبه واستمتعوا بتعليمه الكائن بأقواله وبأفعاله فلم يرفضوا المعرفة فقط لكنهم هبطوا مع ذلك إلى هاوية هلاكهم الواصلة إلى غايتها أذ صاروا به إلى صليبه.

أرأيت أن الزائل فهمهم المتوانين في خلاصهم ما يستفيدون من الفوائد النافعة نفعا والجيد عزمهم المستفيقين من الأفعال التي تشكك آخرين غيرهم منها ينتفعون هم أعظم المنافع بها وهذا الحادث تبصره في يهوذا وفي أيوب وذلك أن يهوذا ما استمد خلاصه ولا من المسيح الذي أنقذه المسكونة وخلصها وأيوب فما أخره ولا أبليس المحال الذي أهلك أناسا هذا مبلغ كثرتهم لكن أيوب بعد أن قاس آفات وبلايا جزيلة عددها كلل ويهوذا بعد أن عاين الآيات وعملها وانهض أمواتا وطرد جبنا بعد أن اخذ السلطان وسمع أقوالا كثيرة في وصف ملك السماء وفي نار جهنم الذي شارك مائدة المسيح السرية وساهم التلاميذ العشاء الذي أستمتع بمودة وعناية هذا تقديرها كما تمتع بها بطرس ويعقوب ويوحنا وأليق ما يقال وأكبر منها بمقدار كثير لأنه فوض إليه حفظ أموال الفقراء. هذا البائس توسوس حينئذ بعد هذه الصلاة الجزيل تقديرها واقتبل الشيطان في سريرته بحب الفضة وصار دافعا وعمل رأس الأعمال الرديئة إذ باع دما جليلا قدره بثلاثين من الفضة وأسلم سيده بقبلة. كم أناس تظن أنهم شكوا في المسيح إذ عاينوا تسليمه الصائر بتلميذه؟ وما قولك في من كانت البرية مدينته ثمرة العاقر أبن زكريا المؤهل أن يعمد تلك الهامة المقدسة الصاير سابقا لسيده حين سكن في الحبس حين قطع رأسه وصار ذبحة أجرة لرقص

زانية كم أناس تظن أنهم تشككوا حينئذ مما جرى عليه وما معنى قولى عن الذين تشككوا في ذلك الحين كم أناس الآن بعد زمان هذا مبلغ تقديره أذا سمعوا أخباره هذه يتشككون ولماذا أذكر يوحنا وحبسه وذبحه وأذكر أيضا عبيد ربنا ولا التجئ إلى سيدي وسيد الكل.

الباب الخامس عشر

"في أن الفاقدين فهمهم قد تشكوا من رأس الفوائد الصالحة"

"أعني من الصليب الذي به أنقذت المسكونة"

وبيان ذلك أن صليب المسيح إلهنا الذي قوم المسكونة وتلافاها الذي جعل الأرض سماء الذي قطع أوصاب الموت الذي جعل الجحيم عاطلا من الانتفاع به الذي هدم قلعة ابليس المحال الذي أبكم الشياطين الذي جعل الناس ملائكة الذي نقض محاريب الأصنام وقلب هياكلها الذي غرس في الأرض هذه الفلسفة الجديدة المستغربة الذي صنع الأفعال المريعة الجسيمة العالية أفلم يصر لأناس كثيرين شكا وفتنة أوليس بولس الرسول يهتف كل يوم دون أن يخجل فيقول نحن ننادي بمسيح مصلوب قد صار صلبه شكا عند اليهود وحماقة هند الأمم فقل لي ما رأيك أفما كان يجب أن يصلب المسيح أما كان واجبا أن تقدم تلك الذبيحة السامية أما كان يجب أن تتم أحكام هذه المحامد الجزيل تقديرها لأن فعلها صار شكا عند الهالكين في ذاك الحين وفيما بعد وفي مدى الزمان كله؟ أن الشك لم يتكون من طبيعة الصليب لكنه أنما يتكون من غباوة الذين تشككوا ولهذا الغرض استثنى بولس بهذا القول فالمسيح عندنا نحن المؤمنين من اليهود والوثنيين قدرة الله وحكمته. أن الشمس من طبيعتها أن تضر العيون الضعيفة أفلأجل ذلك كان ينبغي أن لا تكون هناك شمس؟ والعسل يتبين عند السقماء مرا فما رأيك أيجب أن لا يوجد؟ والرسل أنفسهم أفما حملوا لأناس كلمة الموت لموتهم وقد صاروا لأناس كلمة من الحيوة لحياتهم أفمن أجل الهالكين لا يجب أن يستمتع الأحياء باهتمام هذا تقديره؟

وورود المسيح بعينه الذي هو خلاصنا عين النعم الصالحة وحياتنا الذي أفادنا الفوائد الجيدة الجزيلة عددها كم أناس صار ثقيلا عليهم كم أناس منع قبول عذرهم والعفو عنهم ألم تسمع ما قاله المسيح عز قوله من أجل اليهود "لو لم أجئ لأخاطبهم لما كانت لهم خطيئة". والآن فما يملكون احتجاجا عن خطيئتهم فما رأيك إذ صارت خطاياهم مسلوبة الاعتذار عندهم بعد وروده أفما كان واجبا أن يجئ بسبب أولئك الذين استعملوا الدواء النافع استعمالا رديئاً؟ ومن يقول هذه الأقوال ولا واحد من الناس ولا من الذين قد زاغ تمييزهم جدا. قل لي ما هو الضرر الناشئ من الكتب كم أناس تشككوا منها كم بدع في الدين تولدت من هذه الجهة أفيجب أن تمحى الكتب بسبب المتشككين أو كان واجبا أن لا نعطاها في الابتداء؟ كلا قد كان واجبا أن نعطاها بسبب المعتزمين أن يستثمروا المنفعة منها ولست أكف أيضا عن أن أقول تلك الأقوال بعينها سبيلهم أن يحتسبوا الشكوك لهم وينسبوها إلى أنفسهم. والمزمعون أن ينتفعوا منها المنافع العظيمة كانوا قد تكبدوا خسارة ليست بيسيرة لأنهم عذبوا بسبب ونية غيرهم وزوال إدراكهم.

الباب السادس عشر

في أنه ليس يقتدر عارض أن يضر من لم يظلم هو ذاته

قل لي ما الذي أضر هابيل إذ غدرت به يد قابيل أخيه وقاس موتا بشعا سابقا وقته أوليس اليوم أن يقال أنه ربح كثيرا إذ تكلل إكليلا أبهى حسنا؟ ما الذي أضر يعقوب إذ قاس من أخيه مكاره جزيل مقدارها أذ عدم منزله ومدينته هاربا صائرا عبدا وحصل في شدة عظيمة. ما الذي أضر يوسف إذ صار نظير ذلك فاقدا لمدينته ومنزله صائرا عبدا أسيراً معتقلا وتورط في الخطر إلى أقصاه واصطبر على مثالب هذه صفتها في منزله وفي غربته. ما الذي أضر موسى أذ قرفه رهطه الجزيل عدده دفعات كثيرة وتذمر عليه الذين أحسن إليهم. ما الذي أضر الأنبياء كلهم إذ قاسوا من اليهود مكاره كثيرة عددها. ما الذي أضر يعقوب إذ حاربه إبليس المحال بحيله التي هذا مبلغ كثرتها. ما الذي أضر الثلاثة الفتية ودانيال إذ قاسوا أشد الخطرة في حياتهم وحريتهم وفي النوائب الأخرى التي دهمتهم. ما الذي أضر إيليا النبي إذ عاش في فقر شديد في أقصى غايته مطرودا هاربا ساكنا البراري صابرا طائرا متنقلا دائما. ما الذي أضر داود إذ قاس من شاول نوائب جزيلا تقديرها وتكبد أخيرا من أبنه مصاعب هذا تقديرها أفما أشرق فضله أكثر إشراقا. بل أنه حينما قاس المكارة إلى أقصى غايتها كانت أنفع له من الوقت الذي تمتع برخاء أيامه ويسرها. وما أضر يوحنا إذ قطع رأسه. ما الذي أضر الرسل إذ بعضهم قطعت رؤوسهم ودفعوا إلى عقوبات أخرى جزيل عددها. ما الذب أضر الشهداء إذا انفصلت النفس منهم بعذاب شديد وليس هؤلاء كلهم الذين أشرق فضلهم حين اضطهدوا وحين قاسوا الشدائد في أقصى غاية ووقفوا وقوف الأبطال.

الباب السابع عشر

في أن الصليب مثال للعناية إلهنا العظيمة بنا ولصلاحه وحبه إيانا

فإذا سبحنا سيدنا العام سؤدده لأجل نعمه الأخرى كلها ألسنا نعجب لأجل هذا الإنعام أكثر ونمجده منذهلين منه لأجل صليبه. لأجل موته ذلك الموت اللعين الذي كان قديما أوليس بولس الرسول يجعل موته هذا علامة لحبه إيانا من كل وجه لأنه مات من أجل أناس ارديا؟ لم يذكر أن الله اعتنى بنا فخلق لنا السماء والأرض والبحر والبرايا الأخرى كلها التي خلقها المسيح لحاجتنا وراحتنا لكنه ذكر الصليب دائما قائلا "ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" ومن هذه الجهة يزيدنا أمالا صالحة بقوله هذا القول "لأنه أن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت أبنه فبالأولى كثيرا ونحن مصالحون نخلص بحياته" (رو ٥ :٨ ـ ١٠) أوليس بهذا الصليب المعتز عنده كثيرا احتمل كل ثقل وبه أفتخر أفتخارا عظيما وتلذذ للغاية إذ كتب إلى أهل غلاطية هذا اللفظ " حاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح" ولا سبيل لتعجبنا من قول بولس هذا وفرحه بالصليب وافتخاره وتجمله به لأن الرب ألذي تألم عليه يدعو إلى هذا الفعل مجدا لأنه قال جل قوله "أيها

ألآب قد أتت الساعة. مجد ابنك ليتمجد ابنك أيضا" (يو ١٧ : ١) كتب هذه الألفاظ وقال هذا القول قبل أن يأتي الروح القدس لأن يسوع ما كان بعد قد مجد إذ دعي الصليب مجدا وحين شاء أن يتبين لنا حبه ما ذكر آياته وبدائعه ألبته لكنه أورد صليبه إلى وسط كلامه عند قوله على هذه الحال "هكذا أحب الله العالم حتى بذل أبنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو ٣ :١٦) وقد قال بولس الرسول أيضا "الذي لم يشفق على أبنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شيء " (رو ٨ : ٣٢) ولما وعظنا واستمالنا قال "فان كان وعظ ما في المسيح أن كانت تسلية ما للمحبة أن كانت شركة ما في الروح أن كانت أحشاء ورأفة فتمموا فرحي حتى تفتكروا فكرا واحدا ولكم محبة بنفس واحدة مفتكرين شيئا واحدا. لا شيئا بتحزب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم ثم أورد المشورة وقال هذا الرأي "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضا. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله. لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب" (في ٢ :١ ـ٨) وإذ أشار علينا بالحب أورد هذا الصليب إلى وسط كلامه فقال "فليحب بعضكم بعضا كما أحبنا المسيح وأسلم ذاته من أجلنا قربانا وضحية لله" ولما أراد أن يعبر عن كيفية محبة الرجال لنسائهم قال أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة وأسلم نفسه لأجلهم" ولكي يرينا مقدار شوقه إلى موته لأجلنا ليفتدينا أجاب بطرس حينما أراد أن يمنعه هن الصليب بقوله "حاشاك يارب" أجابه أذهب عني ياشيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس" (مت ١٦ :٢٢ و٢٣) موضحا بذلك مقدار حرصه على أن يخلصنا بصليبه. ومع أنه جعل قيامته في الليل ولم يعلنها للكل ولكن صلبه جعله في وسط المدينة في وسط العيد في وسط مجمع من اليهود بمحضر مجلس قضاء الرومان ومجلس حكم اليهود كليهما حين جمع العيد كافة الملتئمين فيه في وسط النهار بمشهد المسكونة العام وإذا كان الحاضرون وحدهم أبصروا الحادثة الكائنة أوعز إلى الشمس أن تخبر باستتارها كل موضع المسكونة وتذيع ما اجترئ به عليه.

على أن هذا الحادث على ما سبقت فقلت قد صار شكا لأناس كثيرين لكن ما يجب أن نصغي إلى أولئك المتشككين لكن سبيانا أن نتأمل المتخلصين المحكمين الفضائل وما معنى تعجبك والصليب في كل مكان يظهر بهيا لامعا حتى أنه سمى مجدا وفاخر به بولس الرسول لأن في ذلك اليوم الرهيب المزمع أن يجئ فيه الرب معلنا مجده اذا حضر مجلس حكمه المخيف إذا وقفت لديه كافة طبيعة الناس إذا اندلع لهيب النار إذا أتت إلى أسفل جموع ملائكتة وقواته العلوية بغتة إذا ظهرت أرباب الظفر تلك الجزيلة عددها إذا لمع أناس كالشمس وأشرق أقوام كالنجوم وإذا حضرت صفوف الشهداء الكثيرة وجماعة الرسل إذا أقبلت مواكب الأنبياء إذا سيق إلى الوسط محافل الرجال الشجعان كلهم حينئذ في ذلك الظهور المجيد يجئ الصليب باعثا شعاعا ته البهية لأنه قال عز قوله "حينئذ تظهر علامة أبن الإنسان في السماء والشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه" وأما علامة الصليب فتظهر لامعة فيا لبهجة هذا الألم ويا لبهاء الصليب الشمس تظلم والنجوم تتساقط تساقط الورق والصليب يلمع أبهى من تلك النجوم المنيرة تلألؤا مشتملا السماء كلها أرأيت كيف يتجمل به سيدنا إذا يريه ذلك اليوم للمسكونة كلها بإشراق هذا مبلغ كثرته.

الباب الثامن عشر

في أن الفائدة ليست قليلة التي صارت للكنيسة
من العوارض العارضة لها

فإذا رأيت الآن أناسا متشككين من تلقاء الحوادث العارضة فافتكر أولا ذلك الافتكار أنهم لم يحوزوا الشكوك من الجهة لكنهم أنما امتلكوها من جهة سقمهم وضعفهم وهذا المعنى يوضحه الذين ما أثر فيهم هذا العارض وتأمل مع ذلك أن أناسا كثيرين أشرق فضلهم من هذه الجهة أعظم إشراقا إذ مجدوا الله عز وجل شاكرين له بكافة حرصهم ومهما ذكرنا فلا ننظر إلى المتزعزعين المتمائلين لكن أنظر معهم إلى الثابتين ثبوتا مكينا الذين قد عدموا أن يكونوا مزعزعين أقوى مما كانوا. لا نتأمل ألمرتجفين لكن نتأمل السائرين برياح ساكنة وهم أكثر من الراجعين إلى الوراء بجملة كثيرة فأن كان أولئك المنسحبون إلى التشكيك أكثر عددا فأن واحدا عاملا مراد الرب لأفضل من أناس كثيرين متجاوزين شريعته.

الباب التاسع عشر

(في أن الموضع كان فيه شهداء كثيرون
في حياتهم وبعد وفاتهم)

فليخطر بفطنتك جموع الذين تكللوا بإكليل الشهادة ما كان أكثرهم لأن طائفة منهم ضربوا بالسياط وجماعة طرحوا منهم في السجون وبعضهم طوقوا بالسلاسل وبعضهم عدموا وطنهم وفيهم من فقدوا نعمتهم ويسرهم أقوام نقلوا إلى النفي وبعضهم ذبحوا وأقوام شرعوا في ذبحهم وأناس ذبحوا منهم بعزمهم لأنهم لما جردت الحراب عليهم وأرهفت السيوف لهم وتداركت الويلات كل يوم أليهم وعصفت بهم رياح الذين في الرياسات واشتد غضبهم عليهم وتقاطرت المخاوف وأنواع كثيرة من التعذيب والعقوبات أليهم ما خضعوا ولا خاروا لكنهم وقفوا على الصخرة وقد عدموا أن يكونوا متزعزعين وآثروا أن يعملوا كل ما أوضح شجاعتهم وأن يقاسوا كل ما أصابهم حتى لا يشاركوا الذين تجاسروا على هذه الأفعال والأمثال في تجاوزهم شريعة إلههم وما تجرد لهذا الجهاد رجال وحدهم لكن قد وجد معهم في ذلك نساء وتشجعن في جهات كثيرة أكثر من الرجال كثيرا وما تجرد نساء فقط لكن قد وجد معهم أيضا أحداث أيضا وصبيان جدا فقل لي أهذه الفوائد صغيرة عندك أن تربح الكنيسة رهطا من الشهداء هذا المبلغ مبلغه فهؤلاء كلهم شهداء لأن ليس يكون أولئك الناس شهداء وحدهم الذين سحبوا إلى مجلس قضاء وأمروا بالتضحية لأصنامهم فلم يقبلوا وقاسوا ما قاسوه لكن هؤلاء أيضا يكونون شهداء وهم الذين اقتبلوا أن يقاسوا ومكروها من أجل غرض أي كان من الأغراض المظنونة محمودة عند الله وأن بحث باحث باستقصاء بحثه وجد أن هؤلاء شهداء أكثر من أولئك لأنه ليس فعلا متساويا أن يقتبل أحدنا أن يقاسي مكروها ولا يرضي أن تهلك نفسه بالسقوط في ألاثم كم شدة الاضطهاد بل يتكبد هذا العذاب بعينه من أجل

محمدة يحصل عليها فهذا دليل على أن إكليل الشهداء قد تكلل ليس للذين ذبحوا وحدهم لكن قد لبسه معهم أيضا الذين سيقوا لهذا الموت وصاروا معدين له وهذا القول بعينه قد قلته فيما سلف أن الذي قد أعد مذبح وأطاع صار كالمذبوح بعينه وهذا ما أريد أن أحققه وأبرهنه من كلام بولس لأن بولس المغبوط إذا ابتدأ أن يعد الذين أشرق فضلهم في زمان أبائنا وأجدانا وجعل ابتداء وصفه من هابيل ثم تقدم متدرجا إلى نوح وإلى إبراهيم وأسحق ويعقوب وموس ويشوع وداود وصموئيل وايليا واليشع استثنى بأن قال "لذلك نحن أيضا أذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا" (عب ١٢ :١) على أن ليس هؤلاء كلهم ذبحوا وأليق ما يقال أن ولا واحد منهم ذبح ما خلا اثنين أو ثلاثة وهم هابيل ويوحنا وزكريا والآخرون كلهم انتهى عملاهم بوفاتهم ويوحنا بعينه فلم يؤمر بالتضحية لصنم فذبح إذ لم يخضع لذلك لكنه إنما قتل لكم قتل لقوله كلمة واحدة لأنه إذ قال لهيرودس "لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيك" لكن أخذ الحبس وصار من ذلك على الذبح فأن كان من قاوم زواجا غير شرعي وصل به الامر إلى القتل ولما قطع رأسه صار شاهدا وهو أول الشهداء فالذين قد قاسوا ذبحا قاسيا وما تجردوا مقابل هيرودس وحده لكنهم تجردوا مقابل هيرودس وضابطي مملكته والمسكونة كلها وما قاوموا زواجا منحرفا عن الشريعة فقط لكنهم انتصروا لشرائع إلههم ولفرائض كنيسته وقد أزيل حفظها وأوضحوا ذلك بأقوالهم وأفعالهم ومجاهرتهم رجالا ونساء وصغارا حتى يشرفون على الموت كل يوم ويموتون.

فكيف لا نحسب هؤلاء في صف الشهداء ولعمري أن إبراهيم ما ذبح أبنه إلا أنه بنية وعزم قد ذبحه وسمع من العلو صوتا قائلا أنك ما شفقت على أبنك الحبيب من أجلي فمن هذه الجهة إذا كان عزمنا في كل مكان تاما في الفضيلة فنأخذ إكليلا تاما كاملا فان كان ذلك الفاضل لما لم يشفق على أبنه أذيع ذكره ونوه باسمه على هذا المثال فهؤلاء إذ لم يشفوا على ذواتهم بل ثبتوا حياتهم محتملين شتائم ومثالب وأذى وهذا ليس بالأمر الهين ولذلك يتعجب منهم بولس الرسول قائلا "إذا اشتهرتم أحيانا بعذاب وبضغطات وحصلتم أحيانا مشاركين الذين تصرف فيهم هكذا".

وما الذي يقوله قائل في وصف الرجال والنساء الذين جهدوا في إنالة المعذبين الراحة لأن نسوة كثيرات بذلن أملاكهن حتى يحصل للمعتقلين والمنفيين تسلية من شقوتهم الجزيل تقديرها واقتبلن اختلاس ماكن يمتلكنه بسرور على حسب قول الرسول وأناس بذلوا حياتهم بعينها وهكذا كان هؤلاء المجاهدون ذخرة الكنيسة وكنزها حتى أن الذين كانوا فيما سلف طريحين في ونيتهم قد صاروا أسرع من النار كانوا مستمرين في ملاعب الهزل خرجوا إلى البراري جاعلين الروابي والجبال كنيسة والغنم إذ ليس لها أحد يرشدها قد انتقل على رتبة قائدهم وكلهم يبينون بحرارتهم اللائقة بهم وبحرصهم اتصالهم بسيدهم.

أما تنذهل وتتعجب من مبلغ الفضيلة ألتي تكونت من هذه الجهة لأنه ليس العائشون عيشة قويمة فقط أظهروا شجاعتهم لكن كثيرين من المولعين بالنظر إلى الملاعب والهزل التائهين الباهتين إلى سباق الخيل المسارعين إليها طرحوا كافة حياتهم الأولى وجاهدوا حتى انتصروا على الملوك والولاة بثباتهم واحتقروا العذاب وتضاحكوا على الأهوال موضحين أن كل إنسان يمكنه أن يعتنق الفصيلة مذهبها وانه يمكن من كان هالكا جدا أذا تاب وانتقل أن يلامس بنظره السموات بعينها. فإذا قد رأيت آيات الظفر هذا مبلغها وأكاليل مضفورة هذا مقدارها في كثرتها وتعليما كليا جزيلا هذا مبلغه قل لي من أين تشك هل من الظالمين تشك؟ لكنى

ما قلته لست أكف من أن أقوله أن هؤلاء المتشككين سبيلهم أن ينسبوا سبب هلاكهم إلى أنفسهم لأن هذا المعنى بجملته قد أوضحه لنا الكلام الالهي لأنه ليس كل الذين ترونهم بثياب التقوى أتقياء فكم من كثيرين يلبسون صورة التقوى وهم ينكرون قوتها فهؤلاء هم الذين يهزمون حالا ولا يثبتون. هم الذين يلبسون ثياب الغنم وهم ذئاب وكما أن النار تظهر قيمة المعادن هكذا التجارب تظهر المؤمنين من غيرهم وهذا المعنى إذ دل عليه بولس قال "يجب أن تتكون فيكم بدع من الاختيار والهوى حتى يصير المتهذيون فيكم ظاهرين".

الباب العشرون

في أنه قد عرض في زمان الرسل أصعب من هذه العوارض

فلا يذهلك أي عارض تراه مهما كان قاسيا لا تخش إذا رأيت كاهنا قد ضار شريرا متوحشا على رعيته أو واحدا من الرؤساء أو من ضابطي المملكة مظهرا حنقا وجفاوة كثيرة لكن تفطن بأنه قد عرض في أزمان الرسل أصعب من هذه العوارض لأن ضابط قضيب المملكة في زمانهم كان سبب نقض الشريعة لأن بولس الرسول لقبه هذا اللقب إذ كان جامحا إلى كل نوع من أنواع الرذيلة سائرا بخبثه أشر من كافة الملوك الذين تقدموه إلا أن هذا العنيد لم يضر الكنيسة ولا أولئك الرجال الأبطال لكنه أظهرهم أبهى إشراقا مما كانوا. وكهنة اليهود كانوا بهذه الصفة أقواما أرد ياء خبثاء حتى قد بلغوا في شرهم إلى ان أوعز المسيح إلى شعوبهم أن يهربوا من طريقتهم ومن مماثلتهم لأن مخلصنا قال عز قوله "على كرسي موس قد جلس الكتبة والفريسيون وكل ما يقولون لكم أن تعملوه فاعملوه ولا تعلموا نظير أعمالهم" على أنه فضلا عن شلا الكهنة وضابطي المملكة قد أشرق فضل الرسل فكللوا وما ضرهم عارض لكنهم من هذه الجهة أشرقوا إشراقا عظيما فما سبيلنا إذا أن نستغرب نحن الحوادث الحادثة فإن المحن والتجارب في مقترنة في كل مكان بالمستقيمين دائما. تأتيهم من أهلهم من الغرباء منهم ولهذا المعنى لما أبصر بولس الرسول قطرات الشدائد والأخطار متقاطرة عليهم وخشي أن يرتجف من هذه الجهة أقوام من تلاميذه قال حين كاتبهم "قد أرسلت أليكم تيموثاوس حتى لا يتزعزع أحد منكم في هذه الشدائد والضغطات لأنكم قد عرفتم أننا موضوعون لهذا الاحتمال. ومعنى قوله أن الآلام تابعة لما ولابد أن نقاس بلايا كثيرة لأنه قال "أننا موضوعون لهذا الاحتمال" وكما أن الأصناف التي تباع في السوق لهذا الغرض تبتاع وتشترى فكذلك عيشة الرسل لهذا الفعل وضعت لتعرف وكلما قاسوا مكروها كلما بأن فضلهم فلا ننتظر في وقت من الأوقات أن نمتلك صنفا من راحة خارجة ومع ذلك فنحن أكثر الناس سرورا داخليا. فجميع الذين يستفيقون ليس من شأنهم فقط ألا يؤذوا من ألآمهم لكنهم مع ذلك يستفيدون منها فائدة عظيمة فلذلك بما تكلم الرسول عمن بشروا ضده وقاوموه فال "سواء كان بعلة أنه بحق ينادي بالمسيح وبهذا أنا أفرح" وقال "أن وثقي ألت أكثر إلى تقدم الإنجيل" وقل لي ما رأيك فيما جرى في عصر موس النبي في وسط مصر أفما قد أمهل الله للسحرة أن يقاوموه أفما يذكر بولس السعيد هذا الخبر فيقول "كما قاوم يانيس وينبريس موس على هذا النحو يقاوم هؤلاء القوم" وعلى هذه الجهة ما نقصت الشكوك في وقت من الأوقات والأزمان ولا خلا من العالم المكللون بها فهذه الحوادث كلها افتكر ولا تفتكر في هذه العوارض وحدها لكن تصفح مبلغ الفائدة التي تكون من هذه الجهة وتأمل

ذلك المعنى أن أناسا آخرين تتمون لهم من هذه الحوادث أقوال يمتنع التكلم بها لأن ليس يمكنا أن نعرف الغوا مض كلها فأن الحظوظ الأصلح عاقبة ستأتيننا بعد هذه الحوادث والعاقبة البديع فعلها ستكون أكثر منها على حذو ما جرى في عصر يوسف وذلك أن ابتداء ما عرض له بصعوبة وتمادت أحواله على مدى طويل وحصلت أضدادا للوعد الذي وعد به ولكنها صارت فيما بعد أعظم من الحظوظ التي كانت تنتظر له وهكذا في أوان صلب ربنا فقد كان أمره مهينا في أول الأمر ولكنه تحول إلى مجد عظيم. وبعد ذلك سار تلاميذ ربنا إلى الهرب وفي دواعي الطرد وفي الحروب وفي الاغتيالات وكانوا مستترين مخفيين مرتاعين وفي هذه الحال أنذروا بكلام إنذارهم في كل محافل اليهود وكانوا يسرقون الذين يؤمنون بربنا ويسجنونهم ويمزقونهم وما حاجتي أن أذكر ذلك وأذكر اضطهاد الرؤساء لهم لأن واحدا خياميا هو بولس المستمد السلطة منهم استعمل جنونا هذا المبلغ الجزيل مبلغه وقد بلغ فيه إلى أن يسحب رجالا ونساء ويزجهم في الحبوس ولكن أنظر كيف خاف بعد هذه الأفعال هذا المطارد على كافة الذين آمنوا وسما في فضله عليهم وتجاوز فأشرق فعل الصليب أكثر من أشراق الشمس واشتمل المسكونة كلها وضبطها.

الباب الحادي والعشرون

لم صارت المحن كثيرة في العهد العتيق والجديد

فأن قلت فلأجل أي سبب حدثت في العهد العتيق والجديد فوادح خطرة هذا مبلغها ومحن هذه مقدارها واغتيالات هذا مبلغ كثرتها فاعرف أن سبب حدوثها هو أن عمرنا هذا الحاضر هو معركة صراع وفرصة ارتياض وجهاد وكور تصفية وإظهار للفضيلة وكما أن الباغين يتناولون الجلود فيقبضونها بكيفية خاصة ويمدونها في العمد والحيطان حتى تؤهل لتصنع. وصاغة الذهب يولجون الذهب إلى النار إلى أن يجعلوه خالصا من كافة غشه ومعلمو الصراع يروضون المجاهدين في معركة الجهاد بأتعاب كثيرة ويعاركونهم أشد من معركة معانديهم حتى يحكموا في أجسامهم الارتياض في المصارعة كما ينبغي أحكامه ويكونوا متفوقين في جهادهم مستعدين للقبض على أعدائهم فكذلك يعمل الله عز وجل في هذا العالم إذا أراد أن يجعل نفسا ملائمة للفضيلة فيقبضها ويسكبها ويدفعها إلى تعذيب المحن ويهذبها حتى يشدد المتوانين ويصير المتهذبين أوفر تهذيبا ويمتنع اصطيادهم باغتيالات الشياطين عليهم ويجعلهم كلهم ملائمين لقبول النعم الصالحة المأمولة لأنه قد قال أن رجلا قد فاته أن يمتحن ويجرب فذالك قد خاب من الانتفاع به. والضغطة من شأنها أن تولد صبرا فمن ثبتوا هم من كانوا أوفر من غيرهم صبرا فلأجل هذه العلة أهمل أيوب يقاسي كل ما قاساه لكيما يستبين أوفر تهذيبا وحتى يسد فم أبليس المحال ولهذه العلة أهمل رسله حتى يصيروا هم أوفر الشجعان وحتى يوضح من هذه الجهة قدرته لأن هذه ليست صغيرة ولذلك قال لبولس عندما التمس راحة وتخلصا من المصاعب التي احتوت عليه "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل".

الباب الثاني والعشرون

"في أن فواجئ المحن ليست مما لا تشكك فقط الصائب عزمهم
أذا ميزوها لكنها مع ذلك تنفعهم حتى عند الوثنيين".

لأن الذين ما تقدموا بعد على الاعتقاد بالدين المسيحي يستفيدون أذا رأوا احتمالنا وصبرنا فائدة عظيمة لأنهم أذا رأوا النصارى مظلومين مثلوبين وفي الحبس ساكنين قد تكاثرت الاعتداء عليهم مقطعين محروقين مغرقين وما يخضعون لإنكار دينهم ولا بصنف من صنوف الشدائد. فتفطن في مقدار ما يؤثر بهم ذلك إذ يكون موضوعا لتعليم أوفر نفعا ولهذا المعنى سمع بولس الرسول هذه الألفاظ "تكفيك نعمتي فأن قوتي في الضعف تكمل" وهذا الغرض يتجه لنا أن نبصره في العهدين العتيق والجديد. تفطن فيما قاساه نبوخذ نصر الملك وقد كان واجبا من ثلاثة صبيان مأسورين مكتوفين مطروحين في النار ولبث مقهورا وقد كان جيشه الجزيل عدده حاضرا عنده. ولم يقتدر أن يقهر ثلاثة أجسام مستعبدة خائبة من وطنها من حريتها من كرامتها من مقدرتها من أموالها هادمة السكنى مع أهلها ولو لم يطلق ذلك الحريق لما كانت راية ظفرهم صارت بهية بهذه الصورة لامعة ولا كان إكليلهم حصل بهذه الصفة بهيئة حسنة. تأمل ما تكبده هيرودس وقد كان لائقا به أذ وبخه المعمدان حين أبصره ولم تمنعه السلسلة التي غلله بها عن مجاهرته لكنه قد اختار أن يذبح وذلك عنده أفضل من اهماله حرية فمه تلك الحسنة مجاهرتها وتفهم أن هذه الأفعال متى أبصرها وسمعها أحد العائشين في ذلك الوقت أو الكائنين فيما بعد ولو كان من المتوانين جدا الحاوين عقل صغيرا في تمييزه كيف يستفيد منها أعظم المنافع ويذهب رابحا. لا تذكر لي الزائل فهمهم الأغبياء الذين قد صاروا لحوما بذواتهم كثيري الوهم فان هؤلاء ليسوا يذلون في هذه المحن فقط لكنهم يغلطون في كل حادث بمنزلة شعب اليهود الذي أكل منا وخبزا وكان على هذا المثال أيضا ينتقد ربه أذ كان في مصر ولما استخلص من مصر. وعند حضور موس وعند انصرافه. لكن احضر على الوسط أولئك المستفيقين المتيقظين وافتكر كم منفعة استثمروها كانت لائقة بهم أذ أبصروا ثقة أنفسهم فاقدة أن تكون منقلبة وبصيرتهم عادمة أن توجد مظلمة ولسانهم مملوءا مجاهرة فإذا كان إنسان البرية يوحنا المعمدان قهر الملك وهو مستقل فلم يصر متراخيا ولم يلبث صامتا حتى قطع رأسه. فلا تقف عند هذه الأوصاف لكن ابحث عن الأفعال الكائنة بعد ذلك. هيرودس قطع ويوحنا قطع، فمن منهما مطلوب في الناس كلهم؟ ومن هو المحسود؟ ومن هو الذائع ذكره؟ ومن هو المتكلل؟ ومن هو الممدوح؟ من هو المستعجب منه؟ ومن هو الظافر؟ من منهما يوبخ على اليوم؟ أفما يوحنا يهتف في كل كنيسة "لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس أخيك" وهيرودس يشهر به بعد وفاته بزناره وبانحرافه عن الشريعة ومخالفته وبجسارته. وتأمل مع ما قلناه قوة المقيد ما كان أعظمها وضعف المغتصب ما كان أشده أذ أنه ما استطاع أن يصمت لسانا واحدا لكنه أذ أبطله فتح عليه عوض ذلك اللسان ومعه ألسنة جزيل عددها. وهذا الفاضل بعد موته أوقع الرعب في قلب ذابحه حتى بعد ذبحه إياه لأن بهذه الصورة زعزع قلبه الخوف منه الذي أفضى به إلى أن يتوهم فيه أنه قد قام من بين الأموات وأنه حينئذ يجترع العجائب وهو الآن منذ ذلك الوقت وكل وقت يوبخه في المسكونة كلها بذاته وبآخرين غيره لأن كل واحد من المؤمنين إذا قراء الإنجيل يقرأ هذا القول "لا يحل لك أن تأخذ هيروديا امرأة فيلبس اخيك" وهذا يكون

في مجامع المؤمنين ومخالطاتهم التي في منازلهم التي في أسواقهم التي في كل مكان يحويهم أذا ذهب إلى بلاد فارس إلى بلاد الهند إلى بلاد السودان أن مضيت إلى كل ارض تبصرها الشمس لو توجهت إلى أقاصي الدنيا تسمع هذا الصوت وتبصر ذلك العدل هاتفا الآن أيضا رافعا صوته موبخا رذيلة الغاصب لا يصمت قي وقت من الأوقات أصلا. فها قد أفاده صبره الكامل وما الذي أضره من وفاته ما الذي ناله من موته ما الذي تأذي به من سلسلته ما الذي أضره من حبسه بل ما أكثر الذين ثقفهم وهذبهم من الناس المالكين عقلا بواسطة الأقوال التي قالها من النوائب التي قاساها والألفاظ التي ينادي بها الآن أيضا والتي نادى بها حينئذ أذ كان في جسده حيا فلا نقولن لماذا رضي الله لعبده أن يموت شهيدا لآن موته كان إكليلا ولم يكن موتا ولكنه كان أعظم الحظوظ ومقدمه حياة تعلم فلسفة الاحتمال والصبر وليس يحصل لك الا يضرك صنف من أصناف هذه النوائب وأمثالها فقط لكنك مع ذلك تستفيد أعظم المنافع وأجلها وما قولك في المرأة المصرية إما قرفت يوسف أو ما تجنت عليه أو ما قيدت الصديق أو ما خلدته في الحبس أو ما أوقعته في خطر واصل إلى أقاصيه أو ما قتله قتلا بتقوتها عليه أو ما وضعت حوله ظنا خبيثا فما الذي ضره من ذلك في ذلك الوقت أم الآن لأن على مثال جمر نار يحجبه تبن يظن في الابتداء أنه يستره فيأكل الجمر على غفلة التبن الموضوع عليه ويضرم ذلك التبن بعينه اللهيب عاليا ارفع علوا يكون مثال الفضيلة أن ظن ظان أنها تعسف وتعنت فقد تظن لعمري في مبادئها ومقدماتها أنها محجوبة الا أنها بالعوائق التي تعترضها تزهر أزهارا عظيما وتصل أخيرا إلى السماء بعينها لأن ما الذي صار من الحظوظ سعيدا أسعد من حظ ذلك الشاب لأجل ألتجني عليه فبسبب الاغتيال العارض له أذ وصل إلى كرسي الوزارة ومجد الملك لأن معالي الشرف في مفاخر التوفيق والإقبال والأكاليل هي مقترنة بأوجاع النوائب والمحن حتى أن جميع الناس الذين قد عرفوا فضيلة هذا الفاضل يمدحونه في كل مكان من المسكونة وبعد كثرة زمان جزيل تقديره ما قل ذكره لكن صور عفته وفضيلته مرفوعة في كل موضع من المسكونة أبهى حسنا من تماثيل الملوك وأوضح بيانا في بلد الروم في العجم في فطنة كل واحد منا فنبصره كلنا مضبوطا مخنوقا مشيرا إلى تلك الزانية الشقية التعيسة بالمشورات الواجبة مستوردا العظات الناشئة منه كلها لتخليص تلك البائسة مخجلا زوال حشمتها وفقد خجلها مخمدا أتونها مريدا أن يخطفها من الاثم ويسيرها إلى هدوء وسكون فلما زاد اضطرب موجها وكانت سفينتها قد غاصت في الماء هرب هو من أمواجها محاضرا إلى الأرض الصلبة مخلفا ثيابه في يدي تلك الشيقة ظاهرا بتعريفه أبهى حسنا من المتسربلين الدوابيج البنفسجي لونها مقيما ظفر عفته بهيا حاله حال صنديد فريد مظفرا ولسنا ننقص قط من ذكره بهذه الأوصاف لكننا نمعن في وصفه إلى أبعد غاية ونبصر أيضا مسوقا إلى الحبس مكتوفا ضاربا فيه زمانا طويلا ونعظمه لأجل هذه النوائب التي هي أفضل أحواله كثيرا ونطوبه وننذهل منه ونمدحه.

فان كنت عفيفا إذا تأملته تصير اشد عفافا وان كنت فاسقا ستنتقل بحدثه إلى العفة سريعا وتصير أفضل حالا وهذه الألفاظ كلها قد كررناها فلا يرجفكم عارض لكن ارتجفوا من العوارض الحادثة وليكن لكم صبر مثل المجاهدين تعليما للثبات والصبر وإذا رأيتم عيشة كافة الناس المتجلدين العالي محلهم منسوجة بهذه المحن فلا ترتجفوا ولا تنزعجوا لا في محنتكم ولا في محن غيركم فأن الكنيسة من ابتدائها ترتاب في تكاثف الموج عليها وعلى هذه العجيبة نمت وكثرت فلا تستغربوا إذا عارضا فأنه ما حدث حادث ما كان واجبا لكن على ما يجري

الأمر في أملاك الدنيا فلا تجئ اللصوص إلى حيث قد يكون تبن وحشيش ولا إلى موضع فيه رمل وتراب لكن إلى الموضع الذي يكون فيه ذهب وجواهر ولؤلؤ هناك يحتال لصوص البحر ولصوص البر وناقبوا الحيطان ويغتالون اغتيالا متصلا وكذلك إبليس المحتال حيث يرى ثروة زائدة في نفس فاضلة هنالك ينصب حيله ويقدمها ولكن الذين يغتال عليهم إذا ثبتوا ما ينقص حالهم بالضيق لكنهم مع ذلك يجمعون ثروة لفضيلة أعظم تقديرا.

الباب الثالث والعشرون

"في أن المحن العارضة دلالة عظيمة على تهذيب الكنيسة وأنها قد نفعت كثيراً".

وهذا المعنى قد حدث الآن وهذا دلالة عظيمة على ثروة المحامد الكائنة وعلى شجاعة الكنيسة لأن ذلك الشيطان الخبيث حين أبصرها زاهرة متهذبة مستعلية إلى العلو في لحظة صغيرة من الزوان قد صار فيها حرص كثير وتزايد المتهذبون فيما هو أفضل وانتقل العائشون في الخطايا إلى التوبة وعاين المسكونة كلها متعلمة من هذه الجهة حرك حيله كلها وأضرم حروبا من ذوي قبيلتنا وكما جرى منه على أيوب أنه أصدر له حينا فقد أملاكه وحينا عدمه أولاده وحينا مرض جسده وحينا لسان امرأته وحينا تعييرات أصدقائه وتقريعاتهم ومثاليهم وأورد على الصديق كل نوع من حيله فكذلك جرى على الكنيسة الحيل المخترعة منه بالأصدقاء بالأعداء بذوي المراتب بالمحسوبين في الجندية بالمكرمين بالأسقفية بالاغتيالات الكثيرة المختلفة لأنه إذا احتال بهذه الحيل الجزيل مبلغها على الكنيسة ليس مستعجبا أنه لم يزعزعها فقط لكنه جعلها مع ذلك أبهى مما كانت حسنا لأنها ما علمت جميع الناس من هذا التعليم في ذلك الحين الذي لم يصل فيه إليها أذية مثل ما علمت جميع المسكونة بصبرها بضبط هواها وباحتمالها المحن وباحتقارها متعة الدنيا وباحتسابها المجد العالمي كلا شيء وبإعراضها عن الإكرام وبظفرها على الموت وبتهاونها بهذه الحياة وبقبولها عن التنازل عن الأصدقاء وباستعدادها لميتات مختلفة وبظفرها على السيوف وباعتبارها أن حظوظ الدنيا كلها البينة وتكريماتها وشرفها واقتدارها ونعمتها حقيرة أحقر من أزهار الربيع وهذه التعاليم ليس يظهرها واحد فقط ولا اثنان وثلاثة ولكن شعبها كله يظهرها ليس بألفاظه فقط لكن بأفعاله أيضا بالنوائب التي قاسوها بالمحن التي قهروها بالمغتالين عليهم الذين غلبوهم بأفعال صبرهم التي احتملوها مع النوائب التي قاسوها ولم تكن الأفعال إلا صلب كمثل حجر الماس وما هزوا أسلحة ولا أثاروا حروبا ولا مدوا قسيا ولا أطلقوا نشأبا لكن كل واحد منهم توشح بستور الصبر بحب الترتيب والوداعة والشجاعة وبمقاساتهم الضيم اخزوا الذين فعلوه بهم من كثرة تزايد الشر بهم.

الباب الرابع والعشرون

"في أن الذين ينحرفون عن الشريعة بهذه الأفعال سيجازون بعدل هناك ليس في القضاء المرهوب بل وهنها أيضا وهو الخاتمة"

والآن هؤلاء المحتملون الأصفياء يستعملون وجههم بهيا وألحاظهم حرة ومجاهرة يحتجز وصفها ويدخلون إلى السوق ويعتدون في منازلهم فيبادرون إلى القداس والذين عملوا هذه الأعمال المنكرة يحتجبون في كل صنف من صنوف حيلهم التي أوردها قد حازوا في باطنهم فطنتهم خبيثة وهم مرتعدون مرتاعون يجولون وهذه الحال حالهم وكما أن الوحوش المتعسر موتها بعد أن تضرب ضربة أولى وثانية من شأنها أن تصادم السهام بأشد نهضتها فتدفع الضربة على ذاتها أشد الجراحات الحاصلة فيها أذ تتقبل الجراحات في أحشائها بأعيانها والأمواج أذا ما صادمت الصخرة بأشد نهضتها أنما تغيب بعد ذلك بانكسارها وتحللها فكذلك هؤلاء الأشقياء بالأفعال التي يغتالون فيها أنما يحفرون الهوتأت لذواتهم أكثر مما يحفرونها لأناس غيرهم لأن الذين يصابون من غيرهم يصيرون عن أهل المسكونة مفضلين وتراهم يمدحونهم ويذيعون فضلهم ويكللونهم عن الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم الذين يعرفون أفعال الصابرين من أفعالهم والذين يتحققونها من أخبارهم والذين يتوجعون لهم جزيل عددهم والذين يجاهدون معهم والذين يبتهلون لهم بالحظوظ الصالحة كلهم والذين يغتالون هم على غيرهم يصير الذين يمقتونهم جزيلا عددهم وأكثر من ذلك كثيرا الذين يوبخونهم الذين يحزنونهم ويخجلونهم الذين يلعنونهم لعنات جزيلا عددها الذين يتمنون أن يروهم في عقوبة وتعذيب فهذه مكاره تعرض لهم ههنا فأما المكاره التي تحل بهم هنالك فأي قول يبينها لأنه أن كان من يشكك أنسانا واحدا ويفتنه قد حكم عليه بتعذيب هذا تقديره بلغ إلى أن يكون أوفق له أن يعلق في عنقه حجر رحى ويغرق في البحر فتفهموا كم مقابلات عادلة يقابل هؤلاء المشككين بها في مجلس القضاء ذلك المرهوب حينئذ كم عذاب يتكبدونه أفراد لأنهم رجفوا أهل المسكونة كلها واقلقوا كنائس جزيل عددها والذين أصابهم من أولئك ما أصابهم سيقامون مع الشهداء مع الرسل مع الرجال الصناديد العلي محلهم يلمعون ثوبا من الفضائل التي احكموها من أوجاع محنهم من إكليلهم من رايات ظفرهم من كثرة مجاهدتهم وسيصير أولئك معاقبين ولا يمكنهم أن يخلوهم من التعذيب ولو من خيرات الأبرار نالوا ضربات جزيل عددها من أولئك الصبورين يقدمون توسلا لأجلهم لكنه ما ينفعهم ذلك نفعا لأنه أن كان من اعرض عن فقير واحد هو لعازر قاس عذابا جزيلا تقديره وما رزق من التعزية ولا صنفا فما الذي يقاسيه هؤلاء وقد طردوا أناسا هذا مبلغ كثرتهم وضغطوا وغموا أقواما جزيلا عددهم وأزعجوهم فهذه الأقوال كلها أذا تفكركم فيها وجمعتم من الكتب الشريفة ألفاظا مشابهة لها كانت لكم سورا حصينا وتجعلون هذه الأخبار أدوية نافعة للمرض أيضا الأشد مرضا. فقفوا أذا متمكنين عادمين أن تكونوا متزعزعين متوقعين الحظوظ الصالحة المخزونة لكم لأن قد خزنت لكم على حال يلازم الضرورة مكافأة ليست تقدر بأتعابكم لكنها لكثرة سمعوها ممتنع وصفها ذلك أن إلهنا المتعطف علينا قد حرص بجعل مكافأته ومجازاته بتفضيل كثير للذين اختاروا أن يؤمنوا به ويعملوا عملا فريدا صالحا وأن يتكلموا كلاما محمودا فهذه المكافأة نؤمن أن نرزقها بيسوع المسيح ربنا الذي له مع الابن والروح القدس المجد والقدرة والعظمة من الآن وكل أوان والى دهر الداهرين آمين.

المقالة الرابعة

"في أن قراءة الكتب المقدسة المفيدة وإنها تصير ممارسها غير مساد عليه ومصان من الأمور المضرة وأن الرسل هو اسم يتضمن وظائف كثيرة وان الرسل يمتلكون عزما وسلطانا لأعظم جدا من سلطان الملوك والرؤساء ثم يذكر أخيرا في هذه المقالة حال المستنيرين جديدا".

وقد ترجمها من اللغة اليونانية إلى العربية الأب الفاضل اثناسيوس البطريرك الانطاكي وهي موجودة في المجلد الثامن.

إنني حين أشاهد ضعف نيتي فيعروني الكلل والملل وأحجم عن مخاطبة مثل هذا الجم الغفير ولكنني لما أبصر شوقكم واصبا بكم العديم الشبع فأنني انهض عزمي بشوق وحرص وأجول في ميدان التعليم. وانتم وان كان ضميركم صخريا لكن بحرصكم واشتياقكم تصيرون أخف من الأجنحة وكما أن الحيوانات تجعل لها أوكارا في الشتاء وتدخل في ثقوب الصخور ومتى شعرت بإيناع الربيع فإنها تغادر ذلك المكان وتعاشر بقية الحيوانات وتركض معهم بطرا كذلك أنفسكم التي هي محجوبة في أوكار ضعف الضمير فأنها أذا ما شاهدت اشتياق محبتكم تغادر الأوكار وتشترك معكم وتركض صحبتكم وترتع في رياض الكتب الروحية الإلهية في فيدوس السطورات لأن الرياض الروحية وفردوس الكتب الإلهية هي تلاوتها. لأن فردوس هذا النعيم لأفضل من ذلك كثيرا من كون هذا الفردوس ليس هو في الأرض لكنه مغروس من الله في نفوس المؤمنين فهذا الفردوس ليس في عدن ولا وضعه في المشارق وحيزه في مكان واحد لكنه بسطه في الأرض بأسرها وبثه في كافة أقطار المسكونة وأنه بسط الكتب في جميع المسكونة. اسمع ماذا يهتف النبي قائلا في كال الأرض خرج منطقهم وفي أقطار المسكونة انبث كلامهم لأنك إن مضيت يا هذا نحو الهنود الذين تحويهم الشمس وتناظرهم أولا وان سرت نحو اوكيانوس أو نحو جزائر انكلترا أو مضيت إلى جهة البحر الأسود أو أن اتجهت إلى نواحي الشمال فانك تسمع الجميع يتلون الكتب ويتفلسفون فيها بلغات متباينة ولكن الإيمان ليس متباين أما اللغات فمتنوعة ولكن الضمير متفق فالنغمات تغيرت وأما طريق حسن العبادة فلم يتغير فلسانهم وان كان أعجميا لكنهم بالعزم يتفلسفون فيلحنون بالألفاظ وأما طريق عبادتهم فحسن وجميل أشاهدت مقدار هذا الفردوس كيف أنه ممتد إلى كافة أقطار المسكونة؟ فهنا لا يوجد أفعى من كون هذا الموضع عرى من كافة الدبابات ومستور بنعمة الروح وان هذا الفردوس يتضمن ينبوعا نظير ذاك وأنه ليس ينقسم إلى أربعة ولكنه أصل وبدء لربوأت من الأنهر وليس أن الدجلة والفرات ولا نيل مصر ولا عنكبس الذي في الهند ولكن هذا الينبوع يفيض عددا لا يحصى من الأنهر فمن هو الذي يقول هكذا هو الله الذي منحنا هذه الأنهر لأن يقول كالمكتوب "أنها تجري من بطنه أنهار ماء حي".

أرأيت أنهم ليسوأ بأربعة أنهر لكن هذا الينبوع يفيض من الأنهر ما لا عد له وهذا الينبوع ليس بعجيب في طبعه وكثرته فقط وليس بفيض ماء بل مواهب روحية وهذا الينبوع ينقسم على كل نفس من المؤمنين وهو غير منتقض ويتفرق موزعا ولا يفرغ يجري ويلبث كما هو وهو كامل لدى الكافة وتام في كل أحد فهذه هي كمية

مواهب الروح أتشاء أن تدرك كيف أن طبع المياه لا يضاهي هذه بل هي أفضل وأعجب منها فاسمع اذا ماذا يقول المسيح للسامرية لكي تعلم تفاقم هذا الينبوع "أن الماء الذي أعطيه للمؤمن يكون فيه عين ماء فائض بحياة دائمة" ولم يقل متدفقا فقط بل ودائم الفيض لكي يظهر لنا فيه غزاره الجريان غير المتقطع وليميزه عن الماء الذي من عادته أن يتدفق بسرعة دائما وفي كل مكان فهذا لا تستطيع أن تصنعه بقية الينابيع وهي داخل الأرض ولكنها أذا انغلت قسرا من الزيادة فأنها تظهر وتجري خارجا ولأجل أنه أراد أن يظهر تفاوت الماءين فقال الدائم جريه. أتشاء أن تعلم طبيعة هذا فأعرفه من الإفادة لأنه ليس بنافع للحياة الحاضرة لكنه مفيد للحياة الدائمة.

فأذا سبيلنا أن نتدبر في هذا الفردوس ولا نتزحزح عن هذا الينبوع لئلا يصيبنا ما أصاب آدم ونسقط من الفردوس. بل ونلبث داخله ولا نقبل مشورة مبيدة ولا طغيان الشيطان ونستمر على هذيذ هذه الكتب ومن هنا نمتلك صيانة جزيلة ومثلما أن الذين يجلسون في شدة الحر عند الينابيع يستنشقون برطوبة الهواء ويرشون على وجوههم متواترا لئلا يعروهم الاختناق ويشفون غليل الظمأ المستحوذ عليهم بسهولة.

كما أن هذا العلاج لا يحصل إلا من دنوهم إلى الينبوع هكذا حال من يكون مواظبا على ينبوع الكتب الإلهية فأنه ولو أبصر هيجان سعير الشهوة الردية ليستحثه فبهذه المياه يخمد من نفسه ذاك اللهيب بسهولة وأن استشاط قلبه بلهيب حدة الغضب وكان يغلي كقدرة محماة. فأنه بوضعه عليه يسيرا من هذه الماء يخمد غليانه بسرعة ويطفئ لهيبه. وأن قراءة الكتب تختطف الأفكار الشريرة من النفس كاختطافها من وسط السعير فلهذا لما لحظ داود الملك والنبي العظيم فوائد قراءة الكتب والإصغاء إليها بتواتر شبه دوام تلاوتها ومثلها بالغرسة المتأصلة على مجاري المياه الدائمة طراوتها فقال هكذا "طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس لكن في ناموس الرب مسرته وفي ناموس يلهج نهارا وليلا فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه" وكما أن العود المغروس على مجأري المياه الواصل أليها يكون مرتويا في كل وقت ولا يعروه شيء من زعازع الرياح ولا يخاف حر شعاع الهجيرة ولا يجزع من لفحات سخونة الهواء لأن الطراوة التي ضمنه كافية أن ترطبه وتطرد عنه للحين شدة لهيب حرارة الشمس الخارجة هكذا والنفس الحاصلة على مجاري مياه الكتب الإلهية وشاربة منها على الدوام وحاوية ضمنها رطوبة الروح فأنها تصير غير مقهورة ولا فساد عليها من كافة النوايب التي توافيها كالشتائم والأمراض والكسل وما يضاهي ذلك من المصائب ولو استحوذت عليها شرور المسكونة بأسرها فأنها تخمد عنها سعير الألام بسهولة وتتملك التغذية الكافية من تلاوة الكتب لأن لا عظم المجد ولا ثقل الرياسة ولا حضور الأصدقاء ولا شيء آخر من الأمور البشرية يستطيع أن يعتري النفس المغمومة هكذا مثل قراءة الكتب الإلهية ولماذا؟ لأن تلك الأشياء قانية زمنية فلذلك كانت تعزيتها وقتية زائلة.

وأما تلاوة الكتب فهي مخاطبة لله ومتى أراد الباري تعالى أن يعزي من هو في الأحزان فماذا الذي يستطيع من الحاضرات أن يجعله في محنه؟ فلنصغ أذا إلى القراءة ليس هاتين الساعتين فقط لأن السماع الساذج لا يكفينا للصيانة والحرص بل كل أحد منا أذا ذهب إلى منزله فليتخذ الكتب في يديه ويتأمل معاني المقولات وبهذه السجية يستمد المنفعة الكافية من الكتب لأن ذلك العود المغروس على مجاري المياه لم يثبت هناك ساعة واحدة أو ساعتين فقط بل ليلا ونهارا فلهذا يفرع الأوراق ويبرز الأثمار ولو لم يسقه أحد من البشر. ولماذا لكونه

مغروسا على المجاري ويجتذب الرطوبات من أصوله ويرسل المنفعة إلى جميع البدن كأنه من مسام ما وعلى هذا المنوال من يمارس تلاوة الكتب على الدوام ويلبث عند المجاري ولو يتفق له من يشرحها وأنه بواسطة القراءة المتواترة ويجتذب المنفعة كأنها من جراثيم ما فكذلك نحن أذا ما شاهدنا انزعاجكم ونؤائبكم وهممكم الجزيلة فتورد لكم معاني الكتب بمودة ولطف وسكون لنصير تعبير تذكرة المقولات ثابتا فيكم وكما أن الوابل الغزير أذا انسكب على وجه الأرض فأنه يحجب خارجها فقط ولا ينفع العمق أصلا وأما أذا أنحدر بهدوء قليلا قليلا فانه ليس يبلغ إلى درجة الأرض فقط ولكنه ينبعث أيضا إلى أعماقها كأنه من شرايين خفية ويفعم بواطنها رطوبة ويصيرها حسنة القبول لإتباع الأثمار.

هكذا نحن نقدم لنفوسكم هذا المطير الروحاني يسيرا يسيرا بهدوء وسكون لأن سحابات الكتب فروحية هي وأما الأقوال والمعاني فإنها أفضل من مطر غزير ولذا كم السبب نقدم لكم المطر الروحاني شيئا فشيئا لكيما يبلغ ما أقوله على أقاصي نفوسكم ومع ذلك فهذا يوم رابع لنا جائلين في جملة هذا المقال ولم نتعده بعد والأفضل لنا أن نحتقر أولا محلا صغيرا ثم ننحدر قليلا قليلا إلى العمق ونجد الكنز المطلوب من أننا نبحث في أسطح أراض كثيرة باطلا وعبثا. وأني لعارف بأن كثيرين منكم يتذمرون على لأجل إسهابي في الخطاب وأما أنا لا تعنيني دمدمتهم بل تهمتي منفعتكم فقط فالذين يقتدرون منكم أن يسعوا سعيا أشد اسرأعا من الأخوة ألواهني القوى فليصبروا عليهم ويحتملون ضعفهم لأنهم لا يستطيعون البلوغ إلى نشاط أولئك ولهذا يقول بولس أنه لا يجب أن تحث الضعفاء قبل الوقت نحن الأقوياء إذ ليس لهم حينئذ قدرة على ذلك ولكن نحن الأقوياء يجب علينا أن نحتمل ضعف الذين لا قوة لهم ونحن لا يهمنا التظاهر جملة كافية بل أننا تعنينا منفعتكم فقط فلهذا نسهب في بواطن المعاني وأني قد كنت قلت لكم في البوم الأول أنه لا يجب أن نسمع معاني وأني قد كنت قلت لكم في اليوم الأول أنه لا يجب أن نسمع معاني المسطورات على الإطلاق حين تكلمنا في عنوان الهيكل وأوضحنا حكمه بولس ذلك الغريب الذي كان واقفا في مشاحنة الأعداء وقدمها إلى من يلوز به ففي هذا انتهى تعليمنا بأسره في اليوم الأول. ثم بعده في اليوم الثاني التمسنا أن نعرف من هو كاتب هذا الكتاب فوجدنا بنعمة الله أنه لوقا الإنجيلي وأوضحنا لكم الموضوع بأدلة كثيرة بعضها بالبرهان وبعضها بأعمق من ذلك لأنني قد علمت بأن كثيرين من الذين سمعوا لمقالات الأخيرة أم يتبعوها فلا نمل من هذا القبيل ولا نتهاون بالتجاسر على التعمق بأدق منها.

أما المعاني الظاهرة في للسذج القاصر فهمهم أما العميقة فهي أنفع للذين يتأملون بحذاقة لأن المائدة يجب أن تكون متلونة الأنواع بما أن شهوة المدعوين هي متنوعة ففي اليوم الأول تكلمنا لأجل العنوان وفي اليوم الثاني من أجل الذي كتب الكتاب وفي الثالث بالأمس تكلمنا عن بدء الكتاب وأوضحنا ما يوافق السامعين والبعض عن الأفعال والبعض عن العجائب والبعض عن السيرة والبعض عن الآيات والعلامات والقوات وكم مقدار كل واحد منها وكيف أن البعض يسبب بذاته ملكا وأن الذي لا يمتلك معونة من الأفعال فيطرح خارج الأبواب فيجب اليوم أن نتكلم ضرورة على بقية العنوان ونظهر ما هو معنى اسم الرسل لأن هذا الاسم ليس بساذج لكنه منذ البدء هو تكنيه عظيمة للتقدم الروحاني للتقدم العلوي لكن أنهضوا الكون ولو وجد في العلم رياسات كثيرة إلا أنها ليست بهذا المقام نفسه لأن البعض أعظم والبعض أحقر فأولهم رأس عسس ألمدينة

والأعلى منه المتقدم على القبيلة وبعده رئيس أعظم ثم مقدم الجيوش الذي هو الوالي وتوجد رياسة أعلا من هؤلاء وهي رئاسة الوزارة وكما أن جميع هذه الرياسات ليست في مقام وأحد وهكذا الرياسات الروحية فكثيرة هي وليست جميعها بوظيفة واحدة بل أعظم الوظائف بأسرها هي الرياسة فيجب علينا أن نقتادكم من الأمور الحسية إلى المعاني العقلية.

لأن والمسيح هكذا صنع لما فاوض من أجل الروح فأنه ذكر ماء وقال "من يشرب هذا الماء يعطش أيضا فأما من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا لا يعطش إلى الآبد" أرأيته كيف من الأشياء الحسية يقتاد إلى العقلية ونحن فنصنع هكذا فأننا نصعد من أسفل إلى العلا لكيما نصير المقال اشد ايضاحا ولذلك لما تكلمنا عن الرياسة لم نذكر رياسة روحية لكن حسية لكي من هذه نقتادكم إلى تلك أسمعتم كيف عددنا لكم الرياسات الوقتية وكيف أن البعض أعظم والبعض أحقر وكيف أن رياسة الوزارة موضوعة كهام ورأس للكافة فلننظر أذا في الرياسات الروحية فالرياسة الروحية هي بدء النبوة وتوجد رياسة أخرى وهي إنجيلية وهي للراعي وهي للمعلم وهي مواهب الأشفية هي ترجمة اللغات فجميع هذه الأسماء تخص المواهب وأما أمور الرياسات والسلطات فالنبي رئيس هو وعندنا أن الروح الذي يحركه رئيس هو وعندنا أن الراعي أو المعلم هو رئيس روحاني ولكن أعظم هؤلاء جميعهم الرياسة ألرسوليه لأن الرسول أمام كافة هؤلاء.

وكما أن الوزير في الرياسات الحسية فهكذا والرسول له التقدم في الروحانيات وأن قيل من أين يتضح ذلك فلنسمع تعداد بولس للرياسات لأنه يضع في المحل الأعلى الرياسة الرسولية حيث يقول أن الله قد رتب قوما في الكنسية فأولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاء أرأيت هام الرياسة الرسولية أشهدت كيف إن الرسول جالس في العلا وليس أحد يفوقه لأنه يقول لأنه أولا رسلا ثانيا أنبياء ثالثا معلمين ورعاة ثم مواهب الشفاء معاضد النصر سياسات أجناس اللغات. وليست الرياسة الرسولية تفوق الجميع فقط ولكنها هي الأساس والقاعدة وكما أن الرأس موضوع في أعلا جميع البدن وليس هو بدء الجسد ورياسته فقط بل واصله لكافة الأعصاب الملتفة والمحيطة بالبدن منشأها منه وهي تنبت من الرأس وتقتبل موازرة الروح وهكذا تتدبر جميع الحيوانات فعلى هذا النمط هي الرسالة لأنها ليست موضوعة كرياسة وسلطان بقية المواهب فقط بل وتتضمن في ذاتها كافة الأصول فالنبي لا يستطيع أن يكون رسولا وأما الرسول فبالضرورة هو نبي ويمتلك مواهب الشفاء وأجناس اللغات وترجمتها. فلهذا هو أصل وبدء المواهب. ولإثبات ذلك فأقدم لكم بولس شاهدا ولكن ضروريا لنا أن نقدم أولا. أيما هي أجناس اللغات لإظهار الروح وبما أنهم في ذلك الحق كانوا ضعفاء ولم يكن يمكنهم أن يشاهدوا المواهب العقلية بأعين الجسد. لذلك كانوا يعطون حسية لإظهار العقلية وللحين كان المعتمد ينطق بلغته ولغة الهند والفرس والأعاجم حتى يعلم غير المؤمنين أنه قد اخذ الروح القدس. وكانت الإشارة حسية. أعني الصوت. لأنهم كانوا يسمعونها بحواس الجسد وأما نعمة الروح العقلية غير الملحوظة. هي التي كانت تجعل الإشارة الحسية ظاهرة للكافة وهذه الآية فكانت تدعى أجناس اللغات. فأنظر إن لسانا واحدا طبيعيا كان ينطق بلغات متنوعة بواسطة النعمة فكنت تبصر إنسانا واحدا يمتلك بالعدد بواسطة أنواع النعم أفواها متنوعة. وألسن متباينة فلننظر أذا كيف أن الرسول يمتلك هذه الموهبة وبقيتها أجمع. لأنه يقول هكذا "إنني أفضل من جميعكم أتكلم باللغات" أشاهدت كيف أنه يحوي أجناس اللغات وليس هو فقط لكن وجميع المؤمنين لأنه لم يقل "أنني أتكلم

باللغات فقط" بل "وأفضل من جميعكم أتكلم باللغات" وأما النبوة التي كانت له فيوضحها من هذا الكلام قائلا هكذا "أما الروح فيقول جهرا أن في الأزمنة الأخيرة تنصب أوقات صعبة" فقوله في الأزمنة الأخيرة هي "نبوة". وهذا ظاهر للكافة كذا وقوله أيضا "اعلموا أنه في الأيام الأخيرة تنصب أوقات صعبة" ثم قوله "وأيضا أقول لكم بقول الرب أننا نحن الأحياء الذين تبقى إلى مجيء الرب لن نسبق الراقدين" وهذه نبوة أيضا. أشاهدت كيف انه يمتلك النبوة وأجناس اللغات؟